هدية مجلة الأزهر

محمد

منهج ورسالة ـ بحث وتحقيق

فضيلة الشيخ
محمد الصادق إبراهيم عرجون
عميد كلية أصول الدين الأسبق

١٤

الإسراء آية .. وجحودها مُخْرِجٌ عن الملة

وقـد كان فيما أوتيـه نبينا محمد ﷺ من الآيات الحسية المادية آيات جمعت أرفع مراتب التشريف، وأعلى درجات التكريم، وأبلغ منازل التعظيم، لم يُعط مثلها نبي من الأنبياء، انفـردت بنـص قرآني، أثبتهـا منوهًا بخطر قدرهـا، وهو نص صريح لا يقبل التأويل، ولا يحتمل الجدل ذلك هو آية الإسراء، التي يقول الله -تعالى- في شأنها ممجدًا ذاته المقدسة:

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾

(الإسراء: ١)

ومن ثم كان جحود وقوع آية الإسـراء وإنكار وجودها مُخرجًا عـن ملة الإسـلام بإجماع المسـلمين؛ لأنـه إنكار لنص قرآني صريـح، وخـرق لإجماع الأمـة إجماعًا لم يعرف لـه مخالف من كافـة المسـلمين، عامتهم وخاصتهم، والتـأول في كيفية وقوع هـذه الآية العجيبـة العظيمة، وكونهـا وقعت بالجسـد والروح معًا، أي بالصورة البشـرية التي يطلق عليها لفظ (عبد) كما هو اعتقاد جمهور المسـلمين من عهد الصحابة، وهم مئات الألوف

إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، أو وقعت بالروح فقط، أو رؤيا منامية رآها صلى الله عليه وسلم كما نسب إلى آحاد في روايات لا تقوم لها أسانيد - لا يخدش إجماع المسلمين على أن الله -تعالى- أسرى بعبده محمد ﷺ من المسجد الحرام بمكة المكرمة إلى المسجد الأقصى بإيلياء من أرض فلسطين بالشام في جزء من الليل، وهذا القدر هو المجمع عليه، وفيه النص القاطع بوقوع الإسراء وإرائة الله -تعالى- نبيه محمدًا ﷺ ما رأى من آيات ربه في ملكه وملكوته.

ولا شك أن قطع مسافة تُضْرَب أكباد الإبل لقطعها شهرًا مصعدة[1]، وشهرًا آيبة في جزء من الليل أمر خارق لنواميس الطبيعة وقوانينها ونظمها التي أقامها الله على سنن عامة في ترابط ذرات الكون وعناصره، تسير عليها منذ أوجد الله -تعالى- بقدرته هذا الكون العظيم.

والأمة مطبقة - إلا بعض روايات لم تثبت صحة أسانيدها عن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-، وعن معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه- من الصحابة، وقولة عن الحسن بن أبي الحسن البصري على أن الإسراء الذي أخبر به رب العزة

(١) أي: ذاهبة. [المجلة]

مفتتحًا له بعلم التقديس الذي يرمز إلى عظمة الاقتدار الإلهي، وأن قدرة الله -تعالى- لا يتعاظمها شيء ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (يس: ٨٢)

والافتتاح بالتقديس لا يقال إلا في الأمور المستبعدة عادة لتعاظمها، والتي لا تألفها مدارك العقول في متعارف الحياة، وقد تنكرها لأول وهلة نظرًا للسنن العامة التي قام عليها نظام الكون وطبيعة الترابط بين عناصره ومكوناته، فإذا رمت بسهم التأمل ومعرفة اقتدار الله -تعالى- وقهره لكل مخلوق له من مادة أو نظام، رجعت العقول إلى التصديق والقبول ما لم يصدها العناد المستكبر، وآمنت بأن الله -تعالى- في عظمة اقتداره وقهر سلطانه سننًا خاصة لها أسبابها ومناسباتها وأزمانها وأحداثها ودواعيها؛ لأن الألوهية الحقة القاهرة القادرة المدبرة الحكيمة لا تقيدها سنن مخلوقة لها مرئية أو معلومة لدى العقول أو معتادة في متعارف الحياة ومألوفاتها، بل إن هذه الألوهية الحقة تقتضي أن يكون الإطلاق الكامل حقا لها في مشيئة كينونة ما تشاء كونه، ولكن ذلك يجري على نظام خاصٍّ مقدر وهو ما سميناه بالسنن الخاصة التي تقتضيها مناسباتها في أزمانها وأشخاصها وأحداثها -شرِّف

به نبينا محمدٌ[2] ﷺ ووقع له بحالته الطبيعية الكاملة بشرية وروحًا، فلم تفقد روحه جسمه، ولم يفارق جسمه روحه، بل أسرى بهما رب العزة، وهذه الحالة الكاملة لشخص النبي ﷺ التي لا تفارق فيها الروح جسمها المقدور لها الحياة به ومعه في تلازم امتزاجي لا يعرف حقيقته إلا الله -تعالى- هي التي يطلق عليها في لغة العرب عند التفاهم، وفي عرف الناس كافة عند التعامل تعريفا لها لفظ (عبد) كما جاء في آية الإسراء ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ ويتأكد ذلك بإضافة التشريف والتكريم لهذا العبد المكرم التي خصه الله بها في هذا المقام، فقال: أسرى بعبده لاستشعار وقوع ما لم يكن في حسبان العقول، وقد جرى عرف القرآن الأسلوبي على ذلك فقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ (الجن: ١٩)، والقائم الذي يدعو الله هو الشخص المؤلف من روح وجسد، ويزيد ذلك تأكيدا تحديد مبدأ الإسراء ونهايته، وهذا في المتعارف لدى العقول لا يقال إلا في أمر مادي يفيده الانتقال من مكان إلى مكان.

(٢) جملة «شُرِّف به نبينا محمدٌ» هي خبر المبتدأ الموجود في الصفحة السابقة في قوله: «إن الإسراء الذي أخبر به رب العزة ....» [المجلة]

فالإسراء كان قطعا بمقتضى منطوق الآية الكريمة ومفهومها وإشاراتها ولوائحها بأكمل ما يطلق عليه لفظ (عبد) وهو شخص النبي ﷺ المكون من روحه وجسده، لم تفارق روحه جسده، ولم يفقد جسده روحه في جميع لحظات الرحلة المباركة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ومن المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام ذهابًا وأوبة، فلا وجه مطلقا لصرف هذه الحقيقة عن وجهها الذي تدل عليه الآية دلالة بينة.

أرجح الأقوال في وقت وقوع الإسراء:

وقد اختلف أهل العلم في زمن الإسراء اختلافًا عريضًا، والتحقيق الذي ذهب إليه حذاق الأئمة أنه كان قبل الهجرة إلى المدينة بنحو سنة، ولم تكن آية الإسراء في أعاجيبها، وخرقها لنواميس الطبيعة، وما وقع فيها للنبي ﷺ من مشاهدة أسرار الكون والملكوت، وما تجلى له فيها من مكنون الغيب المحجوب بأنوار الجلال الإلهي عن خاصة المقربين مجرد رحلة عجيبة وآية معجزة، وإنما كانت مكرمة فريدة أتحف بها النبي ﷺ، وحفاوة من الألطاف الإلهية شُرِّف بها الحبيب، ودرسًا تربويًا لبيان معالم مسيرة الرسالة في مستقبلها بعد أن بلغت من التمحيص مبلغًا أعدها للسير

قدمًا في طريق الجهاد المتكافئ، بل الجهاد القاهر الغلاب في مقدمة التلطف الرباني بفتح أبواب الفرج والخلاص من مشاق الأذى وفوادح البلاء التي لقيها النبي ﷺ وأصحابه في فترة الكفاح الصبور من قومه في مكة من أحداث فردية وجماعية، كان من أشدها الحصار الظلوم، والخروج إلى الطائف والعودة منها بأثقال الآلام ووجيع الجراح، وفي محافل العرب في مواسمهم وأسواقهم، ومضارب خيامهم، وهو يدعوهم إلى الله -تعالى- إلهًا واحدًا يجب أن يُفرَد بالعبادة والتقديس، وأن تخلع الأنداد من الأصنام والأوثان والزعامات، فيَلقى منهم من شديد الإيذاء وضروب السفاهة قولًا وفعلًا ما كان يقابله بالصفح والعفو والصبر الجميل، مما ختم بعام الحزن الذي فقد فيه ﷺ مأنس الفؤاد ووزير الصدق، والولي الناصر، والحفي الحمي، في وفاة زوجه الأمينة الصديقة، وزيرة الصدق، سيدة نساء العالمين خديجة -رضي الله عنها-، وفي وفاة عمه الذائد عن عرين قومه حمية، في مواقفه إلى جانب النبي ﷺ وهو يبلغ رسالة ربه.

كان الإسراء بقهره لِقوى الطبيعة درسًا إلهيًا في صقل عزائم الدعاة إلى الله - تعالى - تأسيًا بالنبي ﷺ:

وقد كان هذا التشريف بالإسراء وما رأى فيه النبي ﷺ من

الآيات الإلهية المبثوثة في ملكوت الله نقطة تحوّل في توجيه مسيرة الرسالة، وتقوية عزيمة النبي ﷺ في المضي بها قدمًا، متخطيًا العوائق والعقبات، مما انتهى في مكة تحت سمع وبصر غطارفتها[٣] وطغاة ملئها، ببدء النصر المؤزر الذي كانت أولى حلقاته بيعة الأنصار الكبرى، والهجرة إلى المدينة حيث بدأ الجهاد الأعظم، وبدأ معه بناء الشريعة وتأسيس الدولة الإسلامية على يد رسول الله، يحف به الرعيل الأول من المهاجرين والأنصار.

وقد تضافرت النصوص القرآنية والحديثية على أن آية الإسراء كانت ضربًا من ضروب القهر الإلهي لنواميس الطبيعة ونظام ترابط عناصر الكون المادي، فهي رحلة بدأت من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بإيلياء.

آية الإسراء والمعراج لا تبلغ مداها في الإعجاز التشريعي إلا إذا انفردت بصورة من الإعجاز لا يبلغها أحد من الخلق غير المشرَّف بها محمد ﷺ:

ثم أعقبتها رحلة والية لها متصلة بها، بدأت من المسجد الأقصى إلى السماوات العلا، إلى سدرة المنتهى إلى حيث

(٣) الغطارف جمع غطريف، والغطريف السيد الشريف. [المجلة]

سمع محمد صريف أقلام الغيب وهي تكتب مقادير الأشياء في حياة هذا الكون الذي لا يحيط به علمًا إلا مكوِّنه وخالقه وهو الله الذي لا إله إلا هو، وهذا المقام التشريفي، الذي أريد به إلباس النبي ﷺ خِلَع التكريم لتَمسح عنه يد الإنعام الإلهي أثرَ ما لقي من فادح البلاء وشديد الأذى من قوم هم قومه ولكنهم فقدوا معالم الرحمة من قلوبهم، لا يحقق المعنى المقصود منه إلا إذا كان قد وقع بصورة تنفرد بإعجاز لا سبيل إلى أن يقع مثلها لأحد من البشر، وذلك أن يكون الإسراء كما هو صريح النصوص قد وقع لشخص النبي ﷺ وهو في كمال تكوينه جسدًا وروحًا، يقظة في أجلى صورة من التنبه والإدراك الذي لا تفوته لمحات الحفاوة في رؤية عجائب الملكوت، وإشاراتها ومقاصدها، لتكون منائر في سير الرسالة تنير لها وللسالكين إليها وحامليها والمهتدين بهديها الطريق، وهي تمسك بيدها زمام الإقدام لأمة حمَّلها الله أمانة خلافة الأرض لتقيم عليها موازين العدل والرحمة، كما يشير إلى ذلك إشارةً تكاد أن تكون تصريحًا لماحًا قوله -تعالى- في وصف ثبات رسول الله ﷺ على أرفع مقامات الأدب السامي في مقام الشهود: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ (النجم: ١٧).

وهذا ما أثبته القرآن الكريم، وفصلته الروايات الصحيحة

المتضافرة، وأجمعت الأمة عليه زمن وقوعه، وهم الذين شاهدوا أحداثه، تصديقًا من المؤمنين وتكذيبًا من الكافرين.

القول بأن الإسراء كان منامًا أو بالروح فقط قول مستحدث.

فالقول بأن الإسراء كان منامًا في رؤيا رآها النبي ﷺ وهو نائم- كما هو منسوب للحسن بن أبي الحسن البصري- قول مستحدث لم يكن على عهد الصحابة والتابعين، ولم يثبت في روايات تُوازَن أسانيدها في الصحة بأسانيد الروايات التي أخذت بها جماهير الأمة من أن الإسراء كان يقظة بجسد النبي ﷺ وروحه وهو في كمال بشريته يقظة وتنبها.

وأم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- وهي طليعة من نقل عنهم القول إن الإسراء كان بروح رسول الله ﷺ- لم تكن، في زمن وقوع الإسراء على أي قول قاله العلماء في سنها وتوقيت الإسراء، زوجةً لرسول الله ﷺ، ولا كانت في سن من يضبط ضبط إتقان وحفظ، ورسول الله ﷺ لم يدخل بها إلا في المدينة في السنة الثانية، والإسراء كان بمكة، فسنها على أقرب الأقوال في زمن الإسراء من دخول النبي ﷺ بها لم تتجاوز السابعة، وعلى غير هذا القول في توقيت الإسراء لم تكن قد ولدت بعد، أو كانت في سن الطفولية، قريبة المهد.

والرواية عنها مضطربة في محط الاستدلال منها ؛ إذ روي أنها قالت : «ما فقدتُ جسده» ببناء فعل (فَقَدْتُ) للفاعل مسندًا إلى ضميرها . وهذه الرواية -وهي أشهر الروايات- غير مقبولة ؛ لأنها قطعًا لم تكن زوجه حين وقع الإسراء حتى يسوغ أن ينسب إليها أن تقول : «ما فَقَدْتُ جسدَ رسول الله» ، وروي أنها قالت : «ما فُقِد جسد رسول الله» ببناء فعل (فُقِدَ) للمجهول ، وهذا يدل على أنها روت عن غيرها ، ومَنْ هذا الذي يستطيع أن يعم الأحوال والأوقات ويجزم بعدم فقد جسد رسول الله ﷺ زمن الإسراء ؟ ومن أين يأتي هذا الجزم إذا لم يكن مرويًا عن رسول الله ، كما هو الواقع إذ لم يزعم أحد قط أن رسول الله ﷺ قال ذلك . ورُوي : «لم يُفقَد جسد رسول الله ﷺ» بفعل مضارع مبني للمجهول ، قال الخفاجي : قال التلمساني : وهي الأشبه بالصواب فهو إخبار منها عن غيرها ؛ لأنها حينئذ لم تكن زوجته ، بل لعلها لم توجد ، قال القاضي عياض : فإذا لم تشاهد زمن الإسراء عائشةُ دل على أنها حدَّثت بذلك عن غيرها ، فلِمَ يرجحُ خبرُها على خبر غيرها ؟ فليس حديث عائشة بالثابت عنها ، قال الخفاجي : لما في متنه من العلة القادحة ، وفي سنده محمد بن إسحاق ، وقد ضعَّفه مالك وغيره والأحاديث الأخرى أثبت منه .

حديث السيدة عائشة في الإسراء موضوع لرد الحديث الصحيح :

قال الزرقاني في شرح المواهب بعد أن ذكر قول عياض : حديثها ليس بالثابت عنها : لما في متنه من علة قادحة ، وفي سنده من انقطاع وراوٍ مجهول ، ثم قال الزرقاني : قال ابن دحية في التنوير : إنه حديث موضوع عليها ، وقال في معراجه الصغير ، قال إمام الشافعية ابن سريج : هذا حديث لا يصح ، وإنما وضع ردًا للحديث الصحيح .

وإذا انتهى خبر عائشة -رضي الله عنها- في أن الإسراء كان بالروح فقط ، وأنه لم يفقد جسد رسول الله ﷺ إلى هذه النتيجة ، ظهر أنه ليس لعائشة -رضي الله عنها- قول في الإسراء بالروح فقط أو بها مع الجسد ، قال الزرقاني : بل الذي يدل عليه صحيحُ قولها ، أن الإسراء كان بجسده الشريف لإنكارها رؤيته ﷺ لربه رؤية عين ، ولو كانت عندها منامًا لم تنكره .

وإذا بقيت عائشة مع إجماع الصحابة ، أو لم يكن لها قول في الموضوع بقي الإجماع صحيحًا ثابتًا ، ولا يخدشه ما نُسب إلى معاوية -رضي الله عنه- من قوله : إن الإسراء كان رؤية رآها رسول الله ﷺ إذ كان الإجماع منعقدًا قبل أن يدخل معاوية وسائر مسلمة الفتح في الإسلام ، على أن الرواية عنه لم تثبت

بسند صحيح وهي من رواية محمد بن إسحاق وقد عُرف حاله، وعلى فرض ثبوتها فهي اجتهاد متأخر عن الإجماع غير ملزم ولا ناقض للإجماع.

أما ما حُكي عن الحسن بن أبي الحسن البصري فهو أحرى بعدم الإلزام، بل بعدم القبول؛ لأن المروي عنه أنه كان يقول: كان ذلك في المنام رؤيا رآها، ومع القطع بأن رؤيا الأنبياء وحي صادق، لكنها لا تخرج عن عموم الرؤى في أنها لا تستبعد في العقول، ولا يستغرب فيها رؤية الآيات والعجائب الغريبة، ولا تقتضي التكذيب؛ لأن آحاد الناس تقع منه ويرى من العجائب والغرائب أشياء يحدِّث عنها ولا يُكذَّب في أنه رآها في رؤياه المنامية، ولا يستنكر منه ما يحدِّث به، وقد ثبت أن كفار قريش أنكروا الإسراء، وكذبوا النبي ﷺ إذ حدثهم أنه أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليلًا، وهاهو ذا يصبح معهم يحدثهم بما رأى مما يعرفونه[عن الطريق والمسجد الأقصى]، فلما عرفوا صدقه فيما أخبرهم به أعرضوا وقالوا: هذا سحر مبين، وهذا مما يرد به على رواية ما نسب لمعاوية -رضي الله عنه-؛ لأن الإسراء لو كان رؤيا منامية رآها رسول الله ﷺ ما أنكر عليه الإخبار به، ولا كُذِّب فيه، ولا ارتد بعض حدثاء الإيمان من ضعفاء العقيدة.

والذين قالوا عن الحسن ما نسب إليه ذهبوا إلى أنه نزع بآية

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾

(الإسراء: ٦٠)

وهذه الآية قد اختلف العلماء في المراد بالرؤيا فيها، فقيل: إنها رؤيا عام الحديبية، حين رأى رسول الله ﷺ أنه دخل المسجد الحرام فسافر قاصدًا مكة معتمرًا فصده المشركون، وافتتن الناس وتحيروا، ولم يثبت سوى الصديق -رضي الله عنه؛ لأن رؤياه ﷺ وحي صادق، فثبتهم ﷺ بقوله: «أقلت لكم: في هذا العام؟».

وقيل: إن المراد بالرؤيا في الآية رؤيا بدر، أراه جبريل مصارع القوم في غزوة بدر فأراها الناسَ بقوله لهم واضعًا يده على الأرض: «هَذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان» وكان كما قال.

وإذا احتملت الرؤيا في الآية هذه الأوجه فلا تصلح متمسكًا للقول بأن الإسراء كان منامًا، على أنه روي عن الحسن -رحمه الله- خلاف هذا القول، قال عياض: والمشهور عنه خلافه، قال الخفاجي: أي له قولان: أشهرهما أنه كان يقظة.

التحقيق أن الإجماع الصحيح قائم بلا نكير على أن الإسراء كان بمحمد ﷺ وهو في أكمل حالات بشريته روحًا وجسدًا:

وإذا تحرر هذا التحقيق لم يبق قائمًا على دعائم الصحة

التي لا مطعن فيها إلا إجماع الأمة، الصحابة ومن بعدهم من سلف العلماء ومن تبعهم في اعتقاد أن الإسراء من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بإيلياء كان بشخص النبي ﷺ الكامل في بشريته وروحانيته، أي بجسده الشريف وروحه الأعظم، فإذا جاء بعد ذلك من ينتحل مذهبًا مستحدثًا لم يصح عن أحد من الصحابة وهم قدوة الإسلام والمسلمين، فيرى أن الإسراء كان رؤيا منامية أو كان بالروح فلا يقام لانتحاله وزن يُنْقَضُ به الإجماع.

أما المعراج من المسجد الأقصى إلى سدرة المنتهى، بل إلى ما فوق ذلك مما استأثر الله بعلمه وخص به نبيه محمدًا ﷺ فلم يأت عنه في القرآن نص صريح يوقف عنده، وقد يكون في سورة النجم إشارة إليه بقوله -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ (النجم: ١٣، ١٤)

والاتفاق قائم على الرائي، وهو محمد ﷺ وعلى المرئي وهو جبريل -عليه السلام-، وعلى أن سدرة المنتهى في السماء السادسة أو السابعة بمقتضى صريح الروايات الصحيحة التي رواها الأئمة الأثبات، الشيخان وغيرهم.

وقد جاءت الروايات الكثيرة التي تبلغ في جملتها مبلغ التواتر على أن الصلاة فرضت على النبي ﷺ ليلة المعراج،

ولكن هذه الروايات وقع فيها اختلاف بالزيادة والنقص، والتأخير والتقديم، والإسهاب والإيجاز، وذكر ما رآه النبي ﷺ من عجائب الملك والملكوت، وما أتحف به من مظاهر الحفاوة والتلطف كصلاته ﷺ إمامًا بالأنبياء فقد أثبتتها روايات كثيرة، ونفتها روايات دونها في الكثرة، وقد أنكرها حذيفة بن اليمان وهو من خواص الصحابة -رضي الله عنهم، وكالاختلاف في عدد الأواني التي جيء له بها وما فيها من شراب بين اللبن والماء والخمر والعسل، كما اختلفت الروايات في مكان إتيانه بها ﷺ هل كان في الأرض ببيت المقدس، أو كان في السماء، وكالاختلاف في أمكنة الأنبياء من السماوات، وغير ذلك مما حمل بعض العلماء على القول بتعدد الإسراء والمعراج في ليال مختلفة وأزمنة متعددة.

التوفيق بين الروايات لتفادي القول بتعدد الإسراء والمعراج:

وقد حاول كثير من العلماء التوفيق بين الروايات المختلفة ليجعل الاختلاف بينها شكليًا فقال ابن كثير: وكان بعض الرواة يحذف بعض الخبر للعلم به أو ينساه، أو يذكر ما هو الأهم عنده، أو يبسط تارة فيسوقه كله، وتارة يحذف عن مخاطبه مكتفيا بما هو الأنفع عنده، وهذا كما يرى تمحل لا

يدفع الاضطراب في الروايات، وهو توفيق قائم على التخيل لا يستند إلى واقع مسنود بنص من هؤلاء الرواة أنهم قصدوا ذلك.

ثم رد ابن كثير على من ذهب إلى تعدد الإسراء لاختلاف الروايات، فقال: «ومن جعل كل رواية إسراء على حدة فقد أبعد جدًا، وذلك أن كل السياقات فيها السلام على الأنبياء، وفي كل منها يُعَرَّف بهم، وفي كلها تفرض عليه الصلوات، فكيف يمكن أن يدعى تعدد ذلك؟ هذا في غاية البعد والاستحالة»(٤).

وهذا الكلام أصله لابن القيم في الهدي النبوي، لا ندري أخذه ابن كثير منه أو هو من قبيل توافق الخواطر المتعاصرة؟(٥)

رد ابن القيم على الذين زعموا تعدد الإسراء والمعراج:

قال ابن القيم يرد على الذين عددوا مرات الإسراء نظرًا لاختلاف الروايات: "وكان الإسراء مرة واحدة، وقيل مرتين: مرة يقظة، ومرة منامًا، وأرباب هذا القول كأنهم أرادوا أن يجمعوا بين حديث شريك، وقوله: ثم استيقظت وبين سائر الروايات، ومنهم من قال: بل كان هذا مرتين، مرة قبل الوحي

---

(٤) النص في البداية والنهاية، لابن كثير، ط إحياء التراث، ج٣ ص١٤٥. [المجلة]

(٥) انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد، ط الرسالة ١٩٩٤م، ج١ ص٩٧. [المجلة]

لقوله في حديث شريك، وذلك قبل أن يوحى إليه، ومرة بعد الوحي كما دلت عليه سائر الأحاديث، ومنهم من قال: بل ثلاث مرات، مرة قبل الوحي ومرتين بعده".

ثم قال ابن القيم: وكل هذا خبط، وهذه طريقة ضعفاء الظاهرية من أرباب النقل، الذين إذا رأوا في القصة لفظة تخالف سياق بعض الروايات فجعلوه مرة أخرى، فكلما اختلفت عليهم الروايات عددوا الوقائع.

والصواب الذي عليه أئمة النقل أن الإسراء كان مرة واحدة بمكة بعد البعثة، ويا عجبًا لهؤلاء الذين زعموا أنه كان مرارًا، كيف ساغ لهم أن يظنوا أنه في كل مرة تفرض عليه الصلاة خمسين ثم يتردد بين ربه وموسى حتى تصير خمسًا، ثم يقول: أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي، ثم يعيدها في المرة الثانية إلى خمسين ثم يحطها عشرًا عشرًا؟!

وقد غلَّط الحفاظُ شريكًا في ألفاظ من حديث الإسراء، ومسلم أورد المسند منه، ثم قال: وأخَّر وزاد، ونقص -أي شريك- ولم يسرد الحديث -أي مسلم- فأجاد -رحمه الله-.

تشييد ابن القيم للقول بأن الإسراء كان بالروح:

وابن القيم صرح بأن الإسراء والمعراج كانا في ليلة واحدة

يقظة بشخص رسـول الله ﷺ جسده وروحه، ولكن ابن القيم شيد القول بأن الإسراء والمعراج كانا بالروح فقط في محاولة حريصة تـؤذن بميله إلى هذا القول، قال في الهدي: وقد نقل ابن إسـحاق عن عائشــة ومعاوية أنهما قالا: إنما كان الإسراء بروحــه، ولـم يُفْقَد جسـده. هذا النقل منسـوب إلى عائشــة -رضـي الله عنها- ، أما النقـل عن معاوية -رضي الله عنه- فهو كما ذكره ابن كثير في البداية أنه كان إذا سـئل عن ذلك قال: هي رؤيا صادقة رآها. قال ابن القيم: ونقل عن الحسن البصري نحو ذلك -أي إن الإسراء كان بالروح فقط- كما هو المنسوب إلى عائشة -رضي الله عنها- ، والمعروف عن الحسن تصريحه بأن الإسراء كان منامًا، وفرق كبير جدًا بين ما نسبه ابن القيم إلى معاوية والحسـن، وبين ما نسـبته إليهما الروايات عنهما عند ابن إسـحاق، وقد بيَّنَّا ضعف الرواية بهذه الصورة عنهم، بل ذكرنا قول من قال: إن حديث عائشة موضوع عليها.

ثم قال ابن القيم يشيد هذا القول ويدعمه بكلام فلسفي، لا يجري على طرائق الشـريعة في الملة الإسلامية: ولكن ينبغي أن يُعلـم الفـرق بين أن يقال: كان الإسـراء منامًـا - وهذا هو المنسوب في رواية ابن إسحاق الوحيدة إلى معاوية والحسن-

وبين أن يُقال: كان بروحه دون جسـده - أي كالمنسوب إلى عائشة رضي الله عنها- وبينهما فرق عظيم.

وعائشة ومعاوية لم يتَّفقا على القول إنه كان منامًا، بل هذا هو المنقول عن معاوية في رواية ابن إسـحاق الوحيدة عنه أنه كان إذا سـئل عـن ذلك قال: هي رؤيا صادقـة رآها، والرؤيا لا تكون إلا منامًا، فضمُّ معاوية إلى عائشة في أنهما لم يقولا كان منامًا، وإنما قالا: «أسـري بروحــه»- لا يتفق مع قولها: «ولم يفقد جسـده»، كما لا يتفق مع المروي عـن معاوية. قال ابن القيـم: وفرق بين الأمرين، فإن ما يـراه النائم قد يكون أمثالًا مضروبة للمعلوم في الصور المحسوسـة، فيرى كأنه قد عرج به إلى السـماء أو ذهب به إلى مكـة وأقطار الأرض، وروحه لم تصعد، ولم تذهب وإنما ملك الرؤيا ضرب المثال.

والذين قالوا: عرج برسـول الله ﷺ طائفتان؛ طائفة قالوا: عـرج بروحه وبدنــه، وطائفة قالت: عرج بروحــه، ولم يفقد بدنه. قلنا: بل الذين قالوا: عرج برسول الله ﷺ ثلاث طوائف بمقتضـى الروايـات المنسـوبة إليهـم: طائفـة قالـت: عرج برسول الله ﷺ بروحه وبدنه يقظة، وهذا ما انعقد عليه إجماع الصحابـة؛ لأن حديث عائشــة موضـوع عليها لـرد الحديث الصحيـح كما قال إمام الشـافعية ابن سـريج، وطائفة نسـب

إليها القول بأنه عرج برسول الله ﷺ بروحه ولم يفقد جسده، وهـذا باطل من القول نسـب إلى عائشـة -رضـي الله عنها-، وهي في سـن غير ضابطة أو هي لم تكن قد وُلدت، فنسبة هذا القول الباطل إليها لا يحل عروة إجماع الصحابة قبل أن تظهر نسبة هذه القولة إليها، وطائفة ثالثة نسـب إليها أنها قالت: كان الإسـراء رؤيا رآها كما هو المنسـوب إلى معاوية، أو رؤيا منامية كما هو المنسـوب إلى الحسن البصري، وهذه الطائفة لم تثبت الرواية عنها بسـند يعـول عليه وينقض به الإجماع؛ لأنها لم يروها غير محمد بن إسحاق.

ثـم أخذ ابن القيم يدير الكلام علـى القول الذي قيل فيه: إنه عرج برسـول الله ﷺ بروحه فقط ولم يُفْقَد جسـده، وهو قول لا وجود له إذ لم يقله أحد، بعد أن تبين أن حديث عائشة موضوع.

قـال ابن القيم: وهؤلاء -أي الذي قالـوا: عرج بروحه ولم يُفقـد بدنه، وهـم لا وجـود لهم، بعد ثبـوتِ وَهَـنِ الحديث المنسوب إلى عائشة أو وضعه عليها، وهي الوحيدة التي نسب إليها الإسـراء بالروح فقط- لم يريدوا أن المعراج كان منامًا، بل أرادوه وصرحوا به في رواية ابن إسـحاق الوحيدة منسـوبًا إلى معاوية والحسن، ولم يُذكر عنهما أنهما قالا: عرج بروح رسول الله ﷺ فنفي ما نسب إليهما وتقويلهما إن العروج كان

بالـروح فقط تبديل للقول وتحريف للروايـة، وإنما أرادوا أن الروح ذاتها أسـري بها وعرج بها حقيقة وباشـرت من جنس مـا تباشـر بعـد المفارقـة، وكان حالها في ذلـك كحالها بعد المفارقة في صعودها إلى السماوات، سماء سماء حتى يُنتهى بها إلى السماء السابعة فتقف بين يدي الله -عز وجل-، فيأمر فيها بما يشاء، ثم تنزل إلى الأرض.

ثم قال ابن القيم: فالذي كان لرسـول الله ﷺ ليلة الإسراء -علـى هذا القـول المزعـوم- أكمل مما يحصـل للروح عند المفارقة، ومعلوم أن هذا أمر فوق ما يراه النائم، لكن لما كان رسول الله ﷺ في مقام خرق العوائد حتى شق بطنه وهو حي لا يتألم بذلك، عرج بذات روحه المقدسـة حقيقة من غير إماتة. قلنا: ما دام رسول الله ﷺ في مقام خرق العوائد، فلماذا يصرف الإسراء عن كونه -كما هو الواقع- كان بالجسد والروح معًا، وهو الشـخص الكامل بشرية وروحًا المعبر عنه في الآية بلفظ (بعبـده)؟ وبقاؤه على هذا المعنـى المفهوم للعامة والخاصة أدخل في خرق العوائد، ومَن سواه لا ينال بذات روحه الصعود إلى السماء إلا بعد الموت والمفارقة؟! فالأنبياء إنما استقرت أرواحهم هناك بعد مفارقة الأبدان، وروح رسول الله ﷺ صعدت إلـى هناك في حال الحياة ثم عادت، وبعد وفاته اسـتقرت في

الرفيق الأعلى مع أرواح الأنبياء، ومع هذا فلها إشراف على البدن وإشراق وتعلق به بحيث يرد السلام على مَن سلم عليه.

سؤال يهدم بناء ابن القيم من أساسه:

ولا بد من التساؤل حينئذ أمام هذه الحماسة المتدفقة في تشييد بناء هذا القول المتداعي: هل كان هذا التصور للإسراء على قول القائلين بالروح ولم يفقد جسده ﷺ موجودًا في ذهن رسول الله ﷺ حين أخبر مجتمع الكفر من قريش برحلته الإعجازية، فاستمعوا له ما بين مصفق وضاحك وساخر، إنكارًا وتكذيبًا لما قال لهم، وحين استوصفوه المسجد الأقصى، وكان رسول الله ﷺ لم يثبت في ذاكرته بعض أشياء منه فكُرب كربًا شديدًا، فجلاه له رب العزة في الحجر، فجعل ينظر إليه ويخبر عما يسألون، فلما وافق وصفه ما عندهم مما عرفوه عن المسجد الأقصى لكثرة ترددهم عليه للتجارة وغيرها قال قائلهم: أما الوصف فقد صدق فيه؟

وهل كان المسلمون وهم يستمعون إلى نبيهم ﷺ يتحدث عن رحلته الإعجازية يفهمون أنها رحلة روح فقط تركت جسدها وانسلخت منه ثم عادت إليه؟ ففيم إذن كان ارتداد المرتدين، وهم يعلمون أن الروح لها شأنها الخاص الذي لا تقيده الماديات، فتنطلق إلى أقصى المشرق ثم تعود إلى أقصى

المغرب في لحظات من الزمن، وتباشر من الأمور المادية ما يقتضي أعوامًا وشهورًا لو كان حصوله حصولًا ماديًا؟ وهل كان ملأ قريش حين استمعوا إليه ﷺ وهو يحدثهم عن رحلته وعجائب ما رأى فيها من آيات الله في ملكوته في طريقه ذهابًا وجيئة يفهمون أنها رحلة روح انسلخت عن جسدها وتركته حيا حتى عادت إليه وامتزجت به كما كان حالها قبل الرحلة؟ وإذن ففيم كان الإنكار والتكذيب والاستسخار، وهم يعلمون أن الأرواح لا ينكر عليها قطع المسافات البعيدة جدًا في زمن يسير، وقد قالوا في إنكارهم: إننا نضرب لها أكباد الإبل شهرًا مصعدة وشهرًا آيبة وأنت تقول: إنك ذهبت إليها في لحظة من ليل ثم عدت إلينا تحدثنا؟

وهل لهذا الطراز من التخيلات سند من أمثاله وشواهده في آثار الأنبياء ومعجزاتهم، مثل ما وجد من الشواهد لنقل جسم عظيم من مكان قصي البعد في لحظة من ارتداد طرف العين، كنقل عرش ملكة سبأ، وهو ثابت بنص القرآن الكريم؟

ومن العجيب أن الإمام ابن القيم افتتح حديثه عن الإسراء في كتابه (زاد المعاد في هدي خير العباد) بقوله: ثم أسري برسول الله ﷺ بجسده على الصحيح من المسجد الحرام إلى بيت المقدس راكبًا على البراق بصحبة جبريل -عليهما الصلاة والسلام-.

فقوله على الصحيح دليل على أن مقابله ليس صحيحًا، وإذا كان ذلك كذلك ففي أي شيء كانت الحماسة لتشييد قول غير صحيح، وإهمال القول الصحيح لمجرد السرد وقص الروايات؟

إن آية الإسراء والمعراج كانت إعجازًا من الله -تعالى- كرَّم به نبيه وحبيبه محمدًا ﷺ أسرى به من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بإيلياء من الشام بروحه وجسده وهو ﷺ كامل البشرية، فأراه من عجائب آياته في ملكوته ما أراه، حفاوة به وتشريفًا له ولأمته، وعرج به ﷺ جسمًا وروحًا في كامل بشريته، فسما في عروجه حتى سمع صريف أقلام الغيب تجري بمقادير الخلق في الكون، وفرضت عليه الصلاة، وأوتي من المنح الإلهية علمًا وعملًا وبهاء ما لم يؤت مثله أحد من العالمين. هذا اعتقاد كافة المسلمين، وهو ما ندين الله عليه ونعتقده، والله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين.

اختلاف الروايات في وقائع الإسراء والمعراج:

وقد اتسع اختلاف الروايات في حادث الإسراء والمعراج ووقائعه وأحداثه اتساعًا استعصى معه على المهرة من أئمة العلم في الإسلام -قديمًا وحديثًا، مفسرين ومحدثين ونظار

ومتكلمين ومؤرخين- الجمعُ والتوفيق بين هذه الروايات، لما وقع فيها من زيادات ونقصان، وتقديم وتأخير، وإسهاب وإيجاز، وتناقض في الحوادث.

مجموع روايات البخاري في الإسراء والمعراج:

فقد بلغ مجموع ما رواه البخاري في صحيحه نحوًا من عشرين رواية عن ستة من الصحابة بين رواية للقصة كاملة، تجمع بين الإسراء والمعراج، وبين رواية مقتطعة من رواية أخرى، ورواية تفرد الإسراء عن المعراج، وأخرى تفرد المعراج عن الإسراء.

حديث أنس بن مالك من طريق إبراهيم بن طهمان، ومن طريق شريك:

ومن هذه الروايات حديث أنس بن مالك من طريق إبراهيم بن طهمان، وهو مختلفٌ مع حديث أبي هريرة من طريق عبدان في عدد الأقداح التي جيء بها إلى رسول الله ﷺ وفي مكان إتيانه بها، ففي حديث أنس أنها ثلاثة أقداح، وأنه أتي بها عند سدرة المنتهى، وأنها كانت من لبن وعسل وخمر، وفي حديث أبي هريرة أنها كانت قدحين من خمر ولبن وأنه أتي بها في الأرض بإيلياء.

ومنها حديث: أنس من طريق شريك بن عبد الله بن أبي نمر، وهو مختلف مع سائر الطرق والروايات في أمور جوهرية في الموضوع؛ لأن فيه أن الإسراء كان قبل البعث قبل أن يوحى إلى النبي ﷺ أي قبل أن ينبأ ويبعث رسولًا، وفيه النص صراحة على أن الإسراء كان منامًا لقوله فيه: (ثم استيقظ)، وهو اختلاف مشهور، وقد غلَّط الأئمة شريكًا فيه، ولم تقبل هذه الزيادات؛ لأنها تخالف ما عليه جمهور الأمة من الصحابة ومن بعدهم من أئمة العلم.

ومنها: حديث أبي ذر الطويل، وفيه قصة شق الصدر الشريف وغسله بماء زمزم، وأن العروج إلى السماء كان بعد حادثة شق الصدر وغسله، ولم يذكر فيه النزول ببيت المقدس ولا الصلاة فيه لا منفردًا ولا إمامًا بالأنبياء، ولم يثبت فيه مكان أحد من الأنبياء سوى آدم في السماء الأولى، وإبراهيم في السادسة، وسائر الروايات تثبت إبراهيم في السابعة مع إثبات أمكنة غيرهما من الأنبياء في السماوات سماء سماء.

ومنها: حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة أحد الأنصار، وفيه قصة شق الصدر وأن جبريل انطلق به إلى السماء الدنيا، ولم يذكر نزوله بالمسجد الأقصى ولقاء الأنبياء والصلاة إمامًا بهم، فهو في هذا كحديث أبي ذر، وفي حديث مالك بن

صعصعة بكاء موسى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلامًا بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخل من أمتي، وقد تكلم العلماء في هذا البكاء، وفي وصف النبي ﷺ بأنه غلام، وفي كثرة من يدخل من أمته ﷺ بالنسبة إلى من يدخلها من أمة موسى -عليه السلام- بما يبرئ ساحة النبوة عن توهم ما لا ينبغي بالنسبة لموسى رسول الله وكليمه.

ومنها: حديث شريك من طريق عبد العزيز بن عبد الله، وفيه أن الكوثر نهر في سماء الدنيا، وفيه أن موسى في السماء السابعة بفضل كلام الله، وفيه: فقال موسى: ربِّ لم أظن أن ترفع عليَّ أحدًا، وقد وجه العلماء هذا القول توجيهًا يليق بمكانة موسى -عليه السلام- وينفي توهم ما عسى أن يعلق بقلب ضعيف النظر في المعاني والحقائق من عامة المؤمنين.

وفيه: جاء نبينا ﷺ سدرة المنتهى، ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان قاب قوسين أو أدنى، وفيه عند مراجعة موسى: فعلا به إلى الجبار وهو مكانه، وفي الهدي النبوي لابن القيم: فعلا به جبرائيل حتى أتى به الجبار -تبارك وتعالى- وهو في مكانه، وقد علق عليه ابن القيم فقال: هذا لفظ البخاري في بعض الطرق، وقد بين بعض الأئمة أن الضمير في قوله: (وهو

فـيَّ مكانـه) عائـد علـى النبـي ﷺ أي مـكان مناجـاته ربه -عزَّ شأنه-.

مجموع روايات مسلم في الإسراء والمعراج:

أمـا الإمـام مسـلم فقـد بلغ مجمـوع مـا رواه في الإسـراء والمعراج نحوًا من ثماني عشرة رواية عن سبعة من الصحابة، منهـا: حديـث ثابـت البناني عن أنـس بن مالـك، وهو أجود الروايات في آية الإسراء والمعراج سياقةً وترتيبًا وجمعًا.

ومنهـا: حديث أنس عن أبـي ذر من طريق حرملة بن يحيى التجيبي، وفيه: فأدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ(٦)، وإذا ترابها المسك، وفيه: فقال أنس بن مالك: فذكر أنه وجد في السـماوات آدم وإدريس وعيسى، وموسى وإبراهيم -صلوات الله عليهـم- أجمعيـن، ولم يُثبِت كيف منازلهـم فيها، وفيه: قـال ابـن شـهاب: وأخبرني ابن حـزم أن ابن عبـاس وأبا حبة الأنصاري كانا يقولان: قال رسـول الله ﷺ: «ثم عُرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام».

وفيه بعد مراجعة موسـى أن رسول الله ﷺ قال: «ثم انطلق بي جبريل حتى نأتي سدرة المنتهى».

---

(٦) جنابذ جمع مفردها (جُنْبُذَة) وهي ما ارتفع من البناء، وتفسر في الحديث بالقبة. [المجلة]

ومنهـا: حديـث أنس من روايـة محمد بن المثنـى، وفيه: بينا أنـا عند البيت بيـن النائم واليقظان، وهـو حديث مالك بـن صعصعة وفيه: إذ سـمعت قائـلًا يقول: أحـد الثلاثة بين الرجلين، فأتيت فانطلِق بي، ثم ذكر قصة شـق الصدر وغسله بمـاء زمزم، وفيه ذكر البراق ووصفه، وفيه فحُملت عليه، ثم انطلقنـا حتى أتينا السـماء الدنيا، وظاهر ذلك أن العروج إلى السـماء كان مباشـرة بعد شق الصدر وغسـله، وأنه كان على البراق. وفيه: ثم رُفع لي البيت المعمور، وأنه أتي بإناءين في أحدهما لبن، وفي الآخر خمر.

ومنهـا: حديث ثابـت البناني وسـليمان التيمي من طريق هداب بن خالد وشـيبان بن فـروخ عن أنس بن مالك، وفيه أن النبي ﷺ قال: «مررت على موسى ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره».

وإذا اكتفينـا مـن الصحيحيـن، وهمـا قمـة الصحـة فـي الإسـناد، بهذا القدر من الاستشـهاد على اختلاف الروايات، وكلها بأسانيد صحيحة لا مطعن في رواتها وجدنا في غيرهما اختلافًا أوسع وأعمق وأكثر أحداثًا ووقائع.

روايات في غير الصحيحين:

ففي مسـند أحمد تجد حديث ابـن عباس من طريق قابوس

عن أبيه، وفيه بعض وقائع لم تذكر في غيره من الأحاديث، وفيه أن النبي ﷺ لما دخل المسجد الأقصى قام ليصلي فالتفت ثم التفت فإذا النبيون أجمعون يصلون معه، وفيه ذكر قدحين أُتي بهما في أحدهما لبن وفي الآخر عسل.

وقد روى الإمام أحمد في مسنده حديث حذيفة بن اليمان، وفيه محاورة بينه وبين زر بن حبيش، وفيه إنكار حذيفة دخول النبي ﷺ المسجد الأقصى والصلاة فيه، وكان حذيفة يقسم أنهما لم يزايلا البراق، وهذا إنكار لربطه في الصخرة كما في كثير من الروايات، وإنكار لدخوله ﷺ المسجد الأقصى، وإنكار للصلاة فيه.

وفي دلائل البيهقي روايات كثيرة مطولة مسهبة جدًا مشتملة على أحداث ووقائع لم تذكر في الصحيح، ومن أمثل ما رواه البيهقي في دلائله حديث شداد بن أوس ورواه البزار والطبراني في الكبير، وخرجه صاحب مجمع الزوائد وهو مقصور على الإسراء لم يُذكر فيه شيء عن المعراج، وهو جواب سؤال من الصحابة، كيف أُسري بك يا رسول الله؟ فقال: «صليت لأصحابي العتمة بمكة معتمًا»، وفيه أن النبي ﷺ صلى ببيت لحم حيث ولد عيسى -عليه السلام-، وصلى بمدين، عند شجرة موسى، وصلى بيثرب طيبة. وفيه أنه ﷺ

رأى جهنم بوادي المدينة -أي مدينة بيت المقدس- فوصفها لأصحابه، وفيه أنه ﷺ مر بعير قريش، وأنهم أضلوا بعيرًا لهم جمعه فلان، وأنه سلم على أهل العير فعرفوا صوته، وفيه أن أبا بكر أتاه فسأله: أين كنت الليلة؟ فحدثه أنه أتى بيت المقدس الليلة، فعجب أبو بكر وقال: مسيرة شهر، فصِفْه لي؛ فإني أعرفه، فوصفه له، وصدقه في كل كلمة حدثه بها، وقال: أشهد أنك رسول الله، وشاع الأمر في المشركين وظهر تكذيبهم.

فأخبرهم ﷺ أن من آية ذلك مروره بعيرهم ووصفها لهم وأنه يقدمها جمل أسود، عليه غرارتان سوداوان، وأخبرهم بوقت قدوم العير، فقدمت في الوقت الذي عينه لهم.

وقد علق البيهقي على هذا الحديث فقال: إسناده صحيح، مع أن فيه إسحاق بن إبراهيم بن العلاء ضعَّفه النسائي، وقد رُوي ذلك مفرقًا في أحاديث غيره، ومن تفاريقه ما رواه البخاري عن ابن شهاب، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف أنه قال: سمعت جابر بن عبد الله الأنصاري يحدث أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لما كذبتني قريش قمت في الحجر فجلّى الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه».

لا مفر من الترجيح:

هـذا الاختلاف الواسـع بين روايـات الأحاديـث لا يمكن التوفيق فيه إلا بالترجيح بين هذه الروايات:

هذا الاختلاف العريض في سياقات الأحاديث وأساليبها، وأحداثها ووقائعها بالزيادة والنقص والتقديم والتأخير لا يكفي فيها، ولا يشفي ظمأ المتطلعين إلى حقائق العلم والدين، وقضايا المعرفة، ودعائم الإيمان بها -وقضية الإسراء والمعراج من كبريات هذه القضايا العلمية الدينة؛ لأن الله -تعالى- لم يذكر آية مادية حسية مما كرم به نبيه محمدًا ﷺ بمثل ما ذكرها من التمدح بها وتعظيمها ورفع شأنها- ما حاوله بعض العلماء من التوفيق بينها؛ لأن بعض هذه الاختلافات تدخل في صميم الحقائق التي اشتمل عليها حادث الإسراء والمعراج، وهو من أعظم ما شرَّف الله به نبيَّه محمدًا ﷺ من الآيات الحسية والكرامات المادية والمعجزات الصادقة المصدقة لدعوته في رسالته الخالدة العامة عموم الزمان والمكان والأجيال.

فهي آية من أعجب ما أُوتي الأنبياء والرسل، رسمت في إطارها الإعجازي طريق مسير الرسالة في تشريعها وتطبيق أحكامها، بما شاهد فيها رسول الله ﷺ ورآه من آيات ربه في

ملكوته رأي عين من عجائب الكون التي أوتيها رسول الله ﷺ في صور من عالم الغيب، تتضاءل أمام جلالها وعظمتها كل صور المشاهد الأرضية.

وهذه الإراءة لعجائب الملكوت هي في الحقيقة موطن الحفاوة بالنبي ﷺ ليمسح الله بها كل أثر لقيه ﷺ من آثار الفجور الوثني، وطغيان الشرك وعتو العناد، وبأو الاستكبار والبغي في معاملة هؤلاء الفجرة له ﷺ ولأصحابه[7]؛ ليزداد ﷺ علمًا بأن رسالته في عمومها الأشمل وخلودها المؤبد رسالة كفاح صبور أبدي مستمر، ما قامت الحياة على هذه الأرض، وأنها دعوة نضال لا يعرف التوقف والمهادنة؛ لأنها دعوة تستهدف إخراج الإنسانية من ظلمات الظلم والجهل إلى نور العدل والعلم، وتطهير هذه الإنسانية من أوضار الشرك ورجس الوثنيات في كافة صورها وأشكالها مهما ألبست من لبوس العلم الزائف والمعرفة المتهافتة، وإنقاذ الحياة من ظلم الطغيان الممثل في جبروت المستعبدين للبشرية في صورة زعماء وحكام وأباطرة، وثراء في المال، يسخرونهم لقضاء شهواتهم الفاجرة، ويعملون على سرمدة الجهل فيهم لتدوم لهم طاعتهم وتسخيرهم عبيدًا لا يعرفون طعم الحرية

(٧) البأو: الزهو والافتخار والكبر. [المجلة]

في حياتهم، حتى يعلم الناس كل الناس في مشارق الأرض ومغاربها أن التأسي به ﷺ يتمثل في إقامة منهجه في رسالته علمًا وعملًا وصبرًا وجهادًا، وحتى يعلم وارثو منهجه في الدعوة إلى الحق من حملة أمانة دعوته ورسالته المنتصبين للدعوة لها، أنهم يحملون أثقال ما حُمِّل رسول الله ﷺ في تطبيق منهجه على أنفسهم وأقرب المقربين إليهم، وأبعد الأبعدين عنهم، ليكونوا مُثلًا حية لحياته ﷺ في تبليغ رسالته، ونشر دعوته، تتحرك بين الناس حاملة لواء الوراثة النبوية يخفق في آفاق الأرض، منادين باسم السماء التي تنزلت منها تلك الرسالة الهادية [قائلين]: إن رسالة محمد ﷺ عُقد لواءُ انتصارها على عتو المعاندين المستكبرين في الأرض في ظل سدرة المنتهى ليلة شرفه الله بالإسراء والمعراج، وما عقد في السماء فلن يحل في الأرض، فلتسمع الدنيا بمن فيها وما فيها صوت الحق والخير والهدى في هذه الرسالة السرمدية، وليستجب الذين يسمعون إلى دعوة العدل والحب والإخاء الإنساني لله ولرسوله ﷺ وهو يدعوهم لما يحييهم.

وعندئذ تتحقق لهؤلاء الدعاة إلى الله وراثة منهج محمد ﷺ في مشاهدة آثار آيات الله وأعاجيب ملكوته وأسرار ملكه في خزائنها من قلوب العباد؛ لأن كل قلب يفتح للحق والخير

والتراحم الإنساني هو سماء من سماوات البشرية، تنحدر منه غيوث بشائر الإيمان والهدى والإخاء المواسي، بل الإخاء المُؤْثر على نفسه ولو كان به خصاصة.

هكذا كان واقع رسالة محمد ﷺ في الحياة، بعد أن شرفه الله -تعالى- بآية الإسراء والمعراج؛ لأنها كانت مبدأ التمكين في التطبيق العملي، وهكذا كان تطبيق منهجه ﷺ الذي رجع به من رحلة السماء بين الناس والأشياء.

فالدعاة إلى الله بأيديهم مفاتيح القلوب التي أُنزلت مع محمد ﷺ من سماء العزة ليلة الإسراء والمعراج أمانة يتقلدها العلماء بالله في أعناقهم؛ ليؤدوها إلى أهلها منهجًا وسلوكًا كما أداها سيد المرسلين في حياته المباركة.

ويوم يتقاعس حاملو أمانة الوراثة في تبليغ الرسالة ونشر دعوة الحق والنور والهدى، مخلدين إلى الأرض تلمظًا للدنيا وغرورًا بزخارفها وشهواتها، وليس لهم منها إلا ما يتساقط من فتات موائد المفتونين بها من المترفين- لم يبق لهم من هذه الوراثة إلا عبء التحمل في الدنيا وعسير الحساب في الآخرة، وقد ضربت ليلة الإسراء والمعراج لهم الأمثال لو كانوا يعقلون:

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾

(العنكبوت : ٤٣)

هذه حقائق يجب أن تستخلص من واقع آية الإسراء والمعراج ووقائعها وأحداثها في الأرض وفي السماء، والروايات في مجموعها على اختلافها تصور ذلك أكمل تصوير، ولكن الاختلافات الجزئية بينها توقع مَن لا تعمق له في فقه الدين في الحيرة. والحيرة قد تكون طريقًا إلى الشك، والشك هناك لا يقع في جملة الحوادث؛ لأن هذه الجملة قد تضافرت عليها الروايات، فلا سبيل إلى الشك فيها، والشك في بعض الجزئيات لا يمس جوهر الموضوع باعتباره آية من آيات الله التي امتن بها على نبيه محمد ﷺ ليطلعه من عوالم غيبه على ما يزداد به رسوخًا في يقينه، وما يكون له عونًا في طريقه.

ومن ثم لم نتتبع الجزئيات جزئية جزئية؛ لأننا وجدنا النفي والإثبات قد يتعاوران بعض الجزئيات، وليس في أيدينا ما نرجح به بعض الروايات على بعضها الآخر، ووجدنا أن هذا التتبع يطول في غير طائل، وقد ذكرنا بعض الاختلافات في

روايات الصحيحين، وهما في أعلى قمة الصحة السندية، ولن يصل غيرهما إلى درجتهما.

رواية جامعة من صحيح مسلم:

لذلك آثرنا أن نكتفي من هذه الروايات برواية من صحيح مسلم، جاءت جامعة بين وقوع الإسراء والمعراج في ليلة واحدة في سياق محرر سويِّ الترتيب، ثابت الوقائع والأحداث، على ما هو اتفاق جمهرة المسلمين من السلف والخلف، وقد اختار هذه الرواية القاضي عياض.

وهو حديث جمع بين الإسراء والمعراج في سياق واحد وليلة واحدة، وقد ضبطت فيه الوقائع والأحداث والآيات التي أريها النبي ﷺ في الأرض وفي السماوات على حد سواء.

ذلك هو حديث ثابت البناني عن أنس بن مالك، وثابت من الحفاظ الضابطين المجمع على توثيقهم وضبطهم وجودة حفظهم وهو من أئمة المسلمين ديانة وصلاحًا وزهادة في الدنيا، والإمام مسلم روى هذا الحديث من طريق شيبان بن فروخ عن حماد بن سلمة قال: حدثنا ثابت البناني -قال الشهاب الخفاجي: رأس العلماء العابدين في عصره، أي عصر التابعين- عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال:

«أُتيت بالبراق، وهو دابة أبيض طويل، فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس، فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت، فجاءني جبريل بإناء من خمر، وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل: اخترت الفطرة. ثم عرج بنا إلى السماء، فاستفتح جبريل، فقال: من أنت؟ فقال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بآدم، فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بابني الخالة: عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا عليهم الصلاة والسلام، فرحبا بي ودعوا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل؟ ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف، وإذا هو قد أعطي شطر الحسن، فرحب بي، ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، فقيل: ومن معك؟ قال محمد،

قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بإدريس، فرحب بي ودعا لي بخير، قال الله -عز وجل-: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ (مريم: ٥٧) ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، فإذا أنا بهارون، فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح، فإذا أنا بموسى، فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح، فإذا أنا بإبراهيم مسندًا ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه، ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال، قال: «فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى الله إليَّ ما أوحى، ففرض عليَّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزلت إلى موسى، فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت:

«خمسين صلاة» قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم، قال فرجعت إلى ربي فقلت: يا رب خفِّفْ عن أمتي، فحط عني خمسًا، فرجعت إلى موسى، فقلت: حط عني خمسًا، فقال: إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، قال: فلم أزل أرجع بين ربي تعالى وبين موسى، حتى قال: يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة، ومن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرًا، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئًا فإن عملها كتبت له سيئة واحدة.

قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فقال ﷺ: فقلت لموسى: قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه».

وقد ساق القاضي عياض في شفائه هذا الحديث، ثم علق عليه بما قاله شيخه القاضي الحافظ ابن سكرة: جوَّد ثابتٌ هذا الحديث عن أنس -رضي الله تعالى عنه- ما شاء، وقد خلط فيه غيره، لا سيَّما من رواية شريك بن أبي نمر، فقد ذكر شريك في أول حديثه قصة مجيء الملك وشق صدره وغسله بماء زمزم، وهذا إنما كان وهو صبي، وقد روى ثابت

البناني عن أنس -رضي الله عنه- من رواية حماد بن سلمة أيضًا مجيء جبريل إلى النبي ﷺ وهو يلعب مع الغلمان عند ظئره، وشقه قلبه، تلك القصة منفردة من حديث الإسراء كما رواه الناس، فجوَّد في القصتين، وفي أن الإسراء إلى بيت المقدس وإلى سدرة المنتهى كان قصة واحدة، وأنه وصل إلى بيت المقدس وصلى فيه، ثم عُرج به من هناك في نفس الليلة، فأزاح ثابت بروايتيه كل إشكال أوهمه غيره، كحديث يونس الأيلي القرشي عن ابن شهاب عن أنس قال: كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «فرج سقف بيتي فنزل جبريل ففرج صدري» الحديث، وكحديث قتادة بن دعامة السدوسي عن أنس، عن مالك بن صعصعة، وفي هذه الرواية تقديم وتأخير، وزيادة ونقص وخلاف في ترتيب الأنبياء في السماوات، وحديث ثابت عن أنس أتقن وأجود.

ويليه في الجودة حديث قتادة عن أنس بن مالك -رضي الله عنه-، عن مالك بن صعصعة، وهو في البخاري، ولم يذكر فيه النزول بالمسجد الأقصى، ثم حديث أنس عن أبي ذر، وهو أيضًا ليس فيه ذكر للإسراء بل هو خاص بالمعراج.

إلى هنا ونكف عنان القلم عن الاسترسال في تعاريج الروايات الكثيرة التي رويت في قصة آية الإسراء والمعراج

بأسانيد لا تقوى على النقد الممحص ولا تدعو إليه ضرورة في أداء حق الوفاء بالموضوع باعتباره أعظم آية حسية أكرم الله بها حبيبه ورسوله محمدًا ﷺ، وفيما ذكرنا غنية لمن ألقى السمع وهو شهيد.

مواكب الخير تجني بواكير النصر في لقاءات الطلائع اليثربية

كانت المرحلة المكية من مراحل رسالة الإسلام أشق مرحلة مر بها النبي ﷺ والسابقون من أصحابه وأشدها ابتلاء، وأعظمها محنًا، وأقساها احتمالاً؛ لأنها كانت مرحلة تربية وإعداد، وكفاح ونضال، وصبر واحتمال، تحمّل فيها النبي ﷺ وأصحابه من السابقين الأولين - الذين جعلهم الله طلائع لكتائب الإيمان والجهاد، واتخذ منهم شموسًا في آفاق الهداية وأنوارها - من صنوف البلاء والمحن، وضروب الآلام والأذى، وألوان الظلم الكفور، والعتو الأثيم والطغيان الفاجر، والفجور العنيد، والبأو المستكبر، والتنفج الكذوب(٨)، وسفاهة الغرور، وجهالة الغوغاء، ما لم تكن تحتمله الشامخات من الشم الشداد.

فهذه المرحلة لم تكن مرحلة إعجاز تتأيد به النبوة الخاتمة الخالدة، بتنزل القهر بما يستنزل الناس من آفاق عقولهم إلى التصديق كرهًا بما لم تفقهه عقولهم وهي منكوسة الإدراك،

(٨) التنفج: المراد هنا التعالي والتكبر. وأصل النفج الارتفاع. [المجلة]

وما لم تؤمن به قلوبهم وهي غارقة في خضم عنادها العتي الظلوم واستكبارها الجهول الغشوم، ولكنها كانت مرحلة حجاج يخاطب العقول المبرأة من جهالة التقليد البليد، والعصبية الجاهلية الحمقاء.

ومن ثم لم يفقه رسالة الإسلام أولئك الذين عاشوا أصنامًا في أشباح أناسيّ، وأنعامًا في هياكل آدمية لا يعنيهم من الحياة إلا إشباع شهواتهم، وعرضنة بطونهم، وانتفاخ كروشهم، وإلا أن يتكثّروا في غرور أبله من زينة الدنيا وزخارفها، حتي عجبوا حين جاءتهم رسالة التوحيد مما لا يمكن أن يعجب منه عقل لم تستأسره محابّ الدنيا وحطامها، فقالوا إذ قيل لهم:

﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىۡءٍ عِلۡمًا ﴾

(طه: ٩٨)

﴿ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىۡءٌ عُجَابٌ ﴾

(ص: ٥)

وقد ذكرنا من أحداث البلاء، وفوادح الإيذاء التي كانت تصب على النبي ﷺ وأصحابه على أيدي الفجار من الكفرة في هذه المرحلة المكية، أمثلةً وشواهد كثيرة في مناسباتها، تدل دلالة قاطعة على ما كانت تنطوي عليه جوانح هؤلاء

الطغاة من الحقد والضغن، وما كانوا عليه من غلظ الأكباد وقساوة القلوب وعتو الفجور، وعلى ما كانت تنطوي عليه جوانح رسول الله ﷺ من عظيم الرأفة والرحمة، وسماحة الخلق، وكرم السجايا، والعفو والمغفرة، والصفح والإحسان إلى مَنْ أساء إليه، وعلى ما كان مِنْ تأسي أصحابه بأخلاقه، من الصبر والتجلد للبلاء، والإغضاء عن فجور السفهاء وجفوة الجهلاء، والتجاوز عن الإساءة، لأن الله تعالى أراد أن يجعل من هذه المرحلة المكية، محضنًا لمكارم الأخلاق عند المؤمنين، فلم يأذن لهم سبحانه في رد الاعتداء باعتداء مثله، وإنما أمروا بالإعراض تكرمًا، والإغضاء تفضلاً، وأن يقابلوا السيئة بالحسنة، والعذاب بالمغفرة ليتأسى بهم مَن بعدهم من الدعاة إلى الله وحملة أمانة نشر رسالة هذا الدين القيم، حتى يبلغوه إلى العالمين كما تلقوه من نبيهم ﷺ نورًا وهدى ورحمة، وشفاء من أمراض الأرواح والقلوب، وجمحات النفوس وشطحات العقول وشطط الغرائز ووثبات الغرور.

وقد ظلت هذه المرحلة المكية على شدتها ومرارة قسوتها مدة ثلاثة عشر عامًا، وهي المدة التي أقامها رسول الله ﷺ منذ اصطفاه الله لنبوته، ثم اجتباه لرسالته، لم يهدأ لهيب أوارها، ولم تخمد شعلة نارها، والمؤمنون طوال هذا الزمن

طيبو القلب رضا بما يصيبهم من نَصَب وبلاء، وما ينزل بهم من محن وعذاب، لقوة يقينهم ومضاء عزائمهم، وما يرون على رغم ذلك من انتشار دعوتهم، والكافرون يضيقون ذرعا، يكاد يبخعهم القلق النفسي(٩)، والاضطراب الفكري وبلبلة الحياة مما يرون من عظم احتمال المؤمنين وصبرهم، ومما يرون من انتشار دعوة الإسلام ورسالة النبي ﷺ بيْن الخاصة والكافة.

وقد كان من أشق وأقسى ما لقي النبي ﷺ في هذه المرحلة المكية على شمول شدتها وعموم قسوتها، وتوالي محنها وتتابع أحداثها بما تحمل من البلاء والإيذاء -محنةُ الطائف وسوء لقاء أهلها أشرافًا وسفهاء له ﷺ، وزاد في إيجاعها، وشدة إيلامها أنها جاءت واليةً لمحنة الحزن الموجع - بعد الحصار الباخع الظلوم - بوفاة الزوجة الوفية الأمينة الصدّيقة وزيرة الصدق، وسكن الفؤاد السيدة خديجة -رضي الله عنها-، ووفاة الحميم الحمي، الذائد القوي، الناصر الأبي، عم رسول الله ﷺ أبي طالب، الذي جعله الله تعالى بحكمته وفضله سندًا سنيدًا وعمادًا عميدًا، ودعامة صليبة لحماية رسول الله ﷺ دون أن يؤمن به، ويذعن في تصديقه

(٩) يبخع: يقولون: بَخَعَ نفسه بخعًا: قتلها غما. [المجلة]

برسالته، بل ظل - وهو نهّاض بمناصرة رسول الله ﷺ على دين الأشياخ من قومه، ولكنه لم يفتر لحظة عن حمايته، ورد عادية المتجبرين وسفاهة الجاهلين عنه وعن أصحابه.

تلك المحنة الحزينة المحزنة، الموجعة المؤلمة، التي حلّت برسول الله ﷺ بوفاة هذين الحميمين اللذين لم يُسَدّ فراغُهما في حياة النبي ﷺ جعلت سفهاء الغوغاء من قريش وفجار الوثنية من ملئها يمدُّون أيديهم بالأذى، وألسنتهم بالسوء إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، لا يردهم عن هذا الفجور رادّ، ولا يردعهم رادع، ولا يزجرهم زاجر؛ لأن عرين الحمية الهاشمية قد خلا من أَسَدِه بفقد أبي أشباله، وحامي حمى ذماره، فلم يعد لصوت زئيره زمجرةً في وجه ذؤبان قريش وضبعانها، ولم تُسمع له صيحة تفلق قلوب الطغاة المستكبرين.

ولئن كان القلم قد عجز عن وصف أهوال هذه المحنة الثقفية الطائفية المريرة التي جددت آلام محنة الحزن الوجيع بما لقي فيها رسول الله ﷺ من شدائد وأهوال على أيدي طغام أهلها من العبدان والغوغاء، وعلى أيدي سادتها من أبناء عبد كلال: عبد ياليل، وأخويه، مسعود وحبيب، وهو ﷺ بين بيوتهم في بلدهم يدعوهم إلى الله تعالى، وإلى توحيده،

وإخلاص العبادة له، ويطلب إليهم أن يئووه وينصروه على مَن خالفه من قومه حتى يبلغ رسالة ربه، أو وهو خارج من بلدهم مفارق لهم بعد أن يئس من خيرهم، وإبائهم أن يكتموا أمره معهم – فلقد كان المخرج منها معبرًا إلى آفاق من مشارق الأمل المشرق بطلائع النصر المظفَّر في بدء مرحلة جديدة للرسالة الخالدة، تأوي فيها إلى كنف قوي، وركن شديد، يرهبه المتغطرسون من صنائع التعزز بمفاخر الوثنية الذليلة، ومهانة الشرك الأبله البليد.

الباكورة الأولى في لقاء سويد بن الصامت:

سويد بن الصامت أوسي نجاري أنصاري، أمه ليلى بنت عمرو النجارية، أخت سلمى بنت عمرو أم عبد المطلب بن هاشم جد الرسول ﷺ، فسويد بن الصامت ابن خالة عبد المطلب، وكان سويد يُدعى في قومه الكامل، لقوة جَلْده، وبراعة شعره وحكمته، وتعقله، وشرفه في قومه وبلده، وأصالة حسبه ونسبه، وزكانة تفكيره[١٠].

قال السهيلي في (روضه) وبنت سويد: زينَب أو جليسة، أم عاتكة، أخت سعيد بن زيد امرأة عمر بن الخطاب، فسويد بن الصامت جد عاتكة لأمها.

(١٠) الزكانة: يقولون: زكن الأمرَ، أي أدركه بالظن فأصاب الحقيقة. [المجلة]

وهذا الارتباط القوي القريب بجد رسول الله ﷺ عبد المطلب بن هاشم، ثم بعمر بن الخطاب وأسرته ارتباط نسبي له قدره ومكانته في حياة الأفراد والجماعات؛ لأنه يمثل حلقة من حلقات التقارب الحسِّي والمعنوي القائم على وشائج الدم بين سادة يثرب وسادة مكة، يمكن أن يكون له اعتباره في تهيئة جو لدعوة محمد ﷺ ورسالته، يختلف عن جو مكة وموقفها من هذه الدعوة الكريمة والرسالة الخالدة، اختلافًا يسرع بالدعوة إلى الانتقال من حال الكفاح غير المتكافئ بين عصبة الحق ومجتمع الإيمان ممثَّلين في رسول الله ﷺ والسابقين الأولين من أصحابه، وعصبة العصبية القومية الحمقاء، ممثَّلة في ملأ المستكبرين من أحلاس الوثنية الفاجرة من طغاة قريش – إلى حال النضال المحسوب في نظر أولئك الملأ من المعاندين، لما يعرفون عن أبناء يثرب من صدق اللقاء في الحروب التي عاشوا بين أحضانها وتربوا في ساحاتها وميادينها.

وكان سويد بن الصامت رجلاً عُرف بين قومه بالتعلق بشيء من إشراق العقل والتجمل ببعض الفضائل، وهو أول مَن لقيه رسول الله ﷺ من اليثربيين في وفادتهم إلى مكة

حاجين أو معتمرين، أو مستحلفين[١١]، أو تجارًا موسميين، أو رواد أسواق ومحافل منافرين ومفاخرين، أو مكثرين لسواد الوافدين.

وكان النبي ﷺ يعرف هذا الفضل لأخوال جده عبد المطلب، ويعظم قرابتهم ويكرمهم لهذه القرابة، ففي حديث الهجرة عند الشيخين والإمام أحمد أن البراء بن عازب قال: قال أبو بكر الصديق -رضي الله عنه-: ومضى رسول الله ﷺ وأنا معه، حتى قدمنا المدينة وتلقاه الناس، فخرجوا في الطرق على الأجاجير- أي الأسطح - واشتد الخدم والصبيان في الطرق يقولون: الله أكبر، جاء رسول الله ﷺ، جاء محمد. قال أبو بكر: وتنازع القوم أيهم ينزل عليه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزل الليلة على بني النجار، أخوال عبد المطلب، أكرمهم بذلك».

يقول العلامة ابن كثير: وكذلك نزوله ﷺ في دار بني النجار واختيار الله له ذلك منقبة عظيمة لهم، وقد كان في المدينة دور كثيرة تبلغ تسعًا، كل دار محلة مستقلة بمساكنها ونخيلها، وزروعها وأهلها، كل قبيلة من قبائلهم قد اجتمعوا في محلتهم، وهي كالقرى المتلاصقة، فاختار الله لرسوله ﷺ

(١١) مستحلفين: ساعين لإنشاء حِلف أو للدخول فيه. [المجلة]

دار بني مالك بن النجار، وفي حديث أنس عند الشيخين: قال رسول الله ﷺ: «خير دور الأنصار بنو النجار».

وكان لقاء رسول الله ﷺ سويد بن الصامت أول لقاء وجد فيه النبي ﷺ شيئًا من التعقل، ولين الجانب، وتسهل الحديث مما أدخل على قلبه ﷺ شيئًا من الراحة، وبعث في نفسه الأمل في أن تجد دعوته إلى الله -تعالى- وتوحيده قبولاً عند مَن يصغي إليها ويفقهها مستطعمًا لما يسمع من آياتها، بعد طول ما لقي من الجفاء وسفاهة الجهالة، وقسوة الغرور، وسوء الرد، وشناعة المواجهة وضروب الإيذاء، وفادح البلاء، وكثرة السخرية والاستهزاء، فقد كان ﷺ يعرض نفسه الكريمة على الناس متخيرًا أشراف العرب الوافدين إلى مكة وساداتهم، فكان ﷺ لا يسمع بشريف قوم إلا أتاه وعرض نفسه عليه، ودعاه إلى الله -تعالى-، وقرأ عليه آيات القرآن الحكيم، وطلب منه أن يحمله إلى قومه ليؤوه وينصروه ويحرزوه مما يراد به من القتل حتى يبلغ رسالة ربه.

وكان سويد بن الصامت ممن قدم الموسم بعد رجوع رسول الله ﷺ من الطائف إلى مكة، وهو ﷺ مثقل بالآلام، يحمل من الهم والحزن ما يحمل لما صنعه معه أهل الطائف من سوء اللقاء، وقبح الرد عليه، وشدة ما أنزلوه به من فادح البلاء،

وقد عُرض عليه ﷺ أخذُهم بذنوبهم لينزل الله عليهم بأسه، ويصب عليهم نقمات بطشه وسخطه، فأبى ﷺ تكرمًا إلا أن يستأني بهم، رجاء أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئًا.

وخرج ﷺ إلى الناس في الموسم يدعوهم إلى الحق والهدى، والنور الذي أنزل عليه، ويقول كما جاء في حديث جابر عند البيهقي في الدلائل: «هل من رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشًا قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي» فكان ذلك مما ذخر الله تعالى للأنصار، وأكرمهم به.

وتصدى رسول الله ﷺ لسويد بن الصامت إذ علم بمقدمه ومكانه من قومه، فدعاه إلى الله عز وجل وإلى الإسلام، فقال سويد لرسول الله ﷺ: لعل الذي معك مثل الذي معي، فقال له رسول الله ﷺ: «وما الذي معك؟» فقال سويد: مجلة لقمان - يعني حكمة لقمان - فقال رسول الله ﷺ اعرضها علي فعرضها سويد على رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ بعد ما سمع من سويد ما عرضه عليه من حكمة لقمان: «إن هذا الكلام حسن، والذي معي أفضل منه، قرآن أنزله الله عز وجل علىّ، هو هدى ونور» وتلا عليه القرآن ودعاه إلى الإسلام، فأحسن سويد الرد، ولم يبعد من رسول الله ﷺ، وقال: إن هذا القول حسن.

ثم انصرف سويد عائدا إلى بلده يثرب فقدمها على قومه، وفي نفسه ما فيها من تأثر بما سمع من القرآن الكريم، ومن تأثير ما رأى من سمت رسول الله ﷺ وسمو أدبه، ومكارم أخلاقه، ومحاسن دعوته، وجلال رسالته.

وقد رأى قوم سويد منه ما رأوا من تأثره بما رأى من رسول الله ﷺ وما سمع منه مرتسمة على وجهه، وفي نظراته وسبحات فكره، وتسامعوا بلقاء رسول الله ﷺ له واجتماعه به، وقد كان له عندهم صدى يرجع إلى أسماعهم ما تردد في مكة وعلى ألسنة العائدين من الموسم عن بعثة محمد ﷺ، ودار بينهم الهمس والرمز، وهم يشيرون إلى حكيمهم سويد بن الصامت وما بدا عليه منذ قدم إليهم عائدًا من الموسم من نظرات ساهمات، توحي بعمق التفكير فيما رأى من محمد ﷺ وما سمع منه، ومن همهمات يرددها، لا يدرون ما يقول فيها سوى أنهم وجدوا أنفسهم في خلواتهم يذكرون محمد بن عبد الله بن عبد المطلب سيد قريش وابن أختهم، وأنه مبعوث من الله -تعالى- برسالة تهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

بيد أن أهل يثرب من عرب الأوس والخزرج كانوا يعيشون في شحناء مبيدة، ويحيون في بغضاء مدمرة، مما أرَّث[١٢]

(١٢) أرّث: ورّث. [المجلة]

نيران التفرق والعداوة بين القبيلتين، فاحتربوا وتقاتلوا حتى كادوا يتفانون، وقد أدركت هذه الحروب سويدًا فقُتل على يد الخزرجيين.

وكان رجال من قومه ممن يعرف ما كان عليه سويد من التعقل والحكمة، وممن عرف ما عاد به من مكة بعد لقاء رسول الله ﷺ، وممن تسمع إلى همساته وهمهماته ونجواه إلى نفسه يقولون بعد أن أسلموا، وأصبحوا أنصار الله: إنا لنرى سويدًا قتل وهو مسلم، ومهما يكن من أمر هذا الرجل الحكيم فقد كان لقاؤه رسول الله ﷺ باكورة نصر الله -تعالى- لدعوة الإسلام، فتح الله بها نافذة من نوافذ عهد جديد، بدأت به الدعوة الإسلامية سيرها في طريق البناء والعمل لإقامة حياة عامة شاملة، يسودها العدل والرحمة والمواساة والإخاء.

الباكورة الثانية في لقاء إياس بن معاذ:

واشتدت الشحناء بين القبيلتين، وتعاظمت العداوة بين الفريقين، وتنادى كل قبيل منهم مستصرخا يا لثارات الملأ، وسروات الرجال، واشتعلت نيران الحرب ضروسًا، تأكل منهم الأخضر واليابس، وتُفني الأبطال والشجعان من شيبهم

وكهولهم، وعاش بقيةُ السيف من الفريقين[١٣]، شبابًا وبقايا أشباح ممن حطمتهم دائرات الحروب الطاحنة بين يُتم مُذلّ وترمل مُقلّ، ملأ عرصاتِ ديارهم بالأحزان، وفكّر كلّ قبيل في الاستنصار على أعدائه بعقد المعاهدات الحربية، والتماس الأحلاف العسكرية ممن يرون فيهم قوة تزيد في قوتهم.

وكان الأوسيون قد بعثوا وفدًا من رجالهم إلى مكة بزعامة أبي الحَيْسر، أنس بن رافع التماسًا للحلف من قريش، لما بينهم وبين القرشيين من صلات نسبية، وكان مع أبي الحيسر فتية من قومه بني عبد الأشهل، فيهم إياس بن معاذ، وكان أحدث فتيان الوفد سنًا ولكنه كان أصفاهم فطرة، وأطهرهم نفسًا، وأزكاهم عقلًا، فسمع بهم النبي ﷺ وكانت عنده صورة من تعقُّل سويد ولين جانبه وهو أوسي مثلهم فأتاهم، وجلس إليهم وقد علم الذي جاءوا له من التماس الحلف على إخوانهم الخزرجيين من قريش، فقال لهم: «هل لكم في خير مما جئتم له»؟ قالوا: وما ذاك؟ قال ﷺ: «أنا رسول الله، بعثني إلى العباد، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله، ولا يشركوا به شيئًا، وأنزل علي الكتاب» ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم

(١٣) المراد بقوله: بقية السيف، من نجا منهم من تلك الحرب الضروس. [المجلة]

القرآن، فابتدر حصيفهم إياس بن معاذ في حماسة الفتوة، وفتوة الشباب وكان غلامًا حدثًا، فقال: يا قوم، هذا والله خير مما جئتم له، فأخذ أبو الحَيْسر حفنة من تراب البطحاء وضرب بها وجه إياس بن معاذ وقال: دعنا منك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا، فصمت إياس، وقام رسول الله ﷺ عنهم ثم انصرفوا إلى المدينة، ولم يتم لهم حلف.

وكانت بعد ذلك وقعة بُعاث بين الأوس والخزرج، وهي أشهر وقائعهم، وأضرى حروبهم، وأعظم أيامهم أثرًا عليهم، قتل فيها أشرافهم وكبراؤهم وسرواتهم، وذوو الكبرياء والأنفة منهم، ولم يبق من شيوخهم إلا القليل.

وفي صحيح البخاري عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: كان يوم بعاث يومًا قدّمه الله لرسوله ﷺ، قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة وقد افترق ملؤهم وقُتل سراتُهم(١٤).

وقد هلك إياس بن معاذ قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة وظهور الإسلام بها، فلم يدرك رسولَ الله ﷺ ولم يلقه بعد مجلسه في مكة حين لقي وفدهم بزعامة أبي الحيسر لالتماس

(١٤) السُّراة من كل شيء أعلاه ووسطه ومعظمه، وسراة القوم خيارهم، والمفرد سَرِيّ. [المجلة]

الحلف من قريش، وقد دعاهم فيه رسول الله ﷺ إلى الإسلام وتلا عليهم القرآن، وأظهر إياس بن معاذ يومئذ ما وقر في صدره من ميل إلى دعوة النبي ﷺ وقال كلمته المعبرة عن ميله مخاطبًا الوافدين من قومه: يا قوم هذا- أي ما عرضه النبي ﷺ - والله خير مما جئتم له- أي التماس الحلف من قريش.

ذكر السهيلي في روضه، والبيهقي في دلائله، وابن كثير في بدايته عن محمود بن لبيد قال وهو يؤكد ما في قلب إياس من قبول الإسلام واستقراره عليه: فأخبَرني من حضرَه من قومه عند موته أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلل الله -تعالى-(١٥)، ويكبره، ويحمده، ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكون أنه قد مات مسلمًا، لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس، حين سمع من رسول الله ﷺ ما سمع.

ومن ثم كان لقاء النبي ﷺ إياس بن معاذ، وموقف إياس من دعوته ﷺ له وللوافدين معه إلى الإسلام أشبه ببرقة الغيث، التي تلمع في الأفق، لتؤذن العطاشى المقفرين بما يكون بعدها من الغيث المغيث، ينهمر فجاجًا، فيفعم الشعاب والوديان، ويسقي الوهاد والكثبان، متنزلًا من ذرا الشم

(١٥) يهلل لله: يقول: "لا إله إلا الله". [المجلة]

الراسيات، يهز الأرض، لتخرج أجنتها من بطونها ثمارًا يانعة، وقطوفًا دانية، وحبًا متراكبًا، وجنات من نبات شتى، متشابه وغير متشابه، تجري من تحتها الأنهار، ريًا للظامئين وطعامًا شهيًا للساغبين، وفاكهة للمتخيرين، ومتعة للناظرين.

وكذلك كانت خطوات الدعوة إلى الله -عز وجل- في سيرها بعد لقاء إياس بن معاذ، فقد انهمر غيثها في لقاءات إيجابية، ومعاهدات عملية، ومبايعات صادقات مع الوافدين اليثربيين الذين كانوا أنصارًا لله وأنصار دينه، وأنصار نبيه ﷺ يحمونه وينصرونه حتى يبلِّغ رسالة ربه، يحاربون من حارب، ويسالمون من سالم، وقد جعلوا نحورهم دون نحره، يفدونه بأنفسهم وأموالهم وأبنائهم، فلقبهم، رسول الله ﷺ بأفخر لقب، وسماهم بأعز اسم في دنيا الإسلام بعد لقب الهجرة وعزها، سماهم الأنصار، وسميت (يثربهم) المدينة المنورة، وعاصمة الإسلام، وحصن كتائب الفتوح، وقلعة جحافل المجاهدين، وقاعدة دولة الإسلام.

الباكورة الثالثة انهمار الغيث بالبيعة الأولى:

مات إياس بن معاذ وللإسلام ذكرٌ هامس بين أهل يثرب، ولرسول الله ﷺ متحدِّث أشبه بالرمز والإشارة، يتحدث عنه من سمع به ولم يره، فهو مشوق لرؤيته وسماع حديثه، ويتحدث عنه من رآه ولم يسمع منه فهو ريان الرغبة في سماعه، ويتحدث عنه من رآه وسمع منه فهو مأخوذ بحبه وحب ما جاء به، ولكنه وقف متأملًا فيما سمع، لا يتقدم ولا يتأخر، لا يُقبل فيؤمن، ولا يأبى فيعرض ويدبر، وسمع منه من إذْ رآه فازورّ(١٦)، وأبى مستكبرًا فلم يؤمن، ومات حسيرًا مدحورًا.

وكل ذلك قد كان بعد أن آب إلى يثرب وفدُ أبي الحَيْسر، وفيهم إياس بن معاذ، وهذا يوحي بالتشوف والتطلع إلى كشف الغطاء عن الحقيقة فيما يتهامس به الناس، ومضى موسم، وأقبل موسم، وأراد الله إظهار دينه، وإعزاز نبيه ﷺ، وإنجاز موعده له.

وخرج رسول الله ﷺ كدأبه يعرض نفسه الكريمة، على وفود قبائل العرب في محافلهم ومجتمعاتهم، ومضارب إقامتهم، يكلم كلَّ شريفِ قومٍ يلقاه، ويذهب إلى كل سري

(١٦) ازورّ: يقولون: ازورّ عن كذا: مال عنه. [المجلة]

من سَرَواتهم يسمع به، يدعوهم إلى الله، ويذكر لهم الإسلام وشرائعه، ويتلو عليهم القرآن رجاء أن يقبلوا منه ما جاء به من الهدى والنور، فيحملوه إلى أقوامهم لينصروه على من ناوأه، ويئووه ويحرزوه مما يراد به حتى يبلغ رسالة ربه التي منعته قريش من تبليغها، فكانوا يختلفون عليه فمنهم من كان يجفو وَيَسْفُه، ومنهم من كان يجهل ويسخر، ومنهم من كان يمد يده ولسانه بالأذى وسوء الأدب، ومنهم من كان يستحيي ويتقي قالة السوء، ولكنه لا يدفعها.

وكان من أثر هذا الهمس بذكر الإسلام ونبيه ﷺ في جو يثرب - الذي استأثر به الأوسيون إثر عودة كاملهم وحكيمهم سويد بن الصامت، وعودة فتاهم العقول صفي الفطرة إياس بن معاذ من مكة، وما ارتسم على محيّاهما، ونمت عنه خفقات قلبيهما - أن انبعثت روح التنافس القبلي في أنفس الخزرجيين حتى لا ينفرد إخوتهم الأوسيون بمفاخر المستقبل في حياة الدعوة إلى الله، فنهض الخزرجيون إلى مكة في وفد يمثلهم، وهم على عزيمة الإيمان بهذا الداعي الأمين، الذي تهامس بالحديث عنه الأوسيون في دورهم، والذي كانت له في نفوسهم صورة من كثرة ما كانوا يسمعون عنه من مواليهم وحلفائهم اليهود أهل العلم بالكتاب الأول، الذي بشر بالنبوة

الخاتمة والرسالة الخالدة، ونعت نبيها ورسولها بما كان له من النعوت والخصائص المميزة له.

وبينما كان رسول الله ﷺ عند العقبة الأولى، عقبة الجمرة، يدعو الناس إلى الإسلام، إذ لقي رهطًا من اليثربيين الخزرجيين أراد الله بهم الهداية، وذخر لهم الخير، فقال لهم: «من أنتم؟» قالوا: نفر من الخزرج فقال ﷺ: «أمن موالي يهود؟» أي حلفائهم، قالوا: نعم، قال ﷺ: «ألا تجلسون أكلمكم؟» قالوا: من أنت؟ فانتسب إليهم رسول الله ﷺ، وأخبرهم خبره، قالوا: بلى، فجلس إليهم، فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.

وكان من صنع الله لهم، وحكمته ولطف تدبيره لرسوله ورسالته، أن اليهود كانوا مع هؤلاء الخزرجيين وإخوتهم الأوسيين، يساكنونهم في بلادهم ويشاركونهم حياتهم في معاملاتهم، وكان اليهود أهل كتاب وعلم، وكان الخزرجيون وإخوتهم الأوسيون أهل شرك وأوثان، على كثرة عددهم وتعززهم بهذه الكثرة، وكانت لا تزال نيران الحروب مشتعلة بينهم وبين اليهود، فإذا قهروا اليهود وعزّوهم(١٧) قال لهم اليهود يتوعدونهم: إن نبيًا سيبعث الآن، قد أظل زمانه، وسوف

---

(١٧) المراد: بـ(عزوهم) غلبوهم. [المجلة]

نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، حتى نستأصلكم، كما قص القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (البقرة: ٨٩)

قال الحافظ السيوطي في (الدر المنثور): أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل من طريق عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري، حدثني أشياخ منا، قالوا: لم يكن أحد من العرب أعلم بشأن رسول الله ﷺ منا، كان اليهود معنا، وكانوا أهل كتاب، وكنا أصحاب أوثان، وكنا إذا بلغنا منهم ما يكرهون قالوا: إن نبيًا يبعث الآن، قد أظل زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بعث الله تعالى رسوله ﷺ اتبعناه، وكفروا به، ففينا وفيهم أنزل الله:

﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية كلها، ثم قال الحافظ السيوطي: وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس: أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه.

اجتمع رسول الله ﷺ بهؤلاء الرهط الخزرجيين، فكلمهم ودعاهم إلى الله عز وجل، فعرفوا نعته، مما عندهم من أقوال اليهود وأحاديثهم عنه، وأيقنوا به واطمأنت قلوبهم إلى ما سمعوا منه عن الإسلام وشرائعه، وعرفوا حقيّة ما كانوا يسمعون من مواليهم وحلفائهم اليهود، فقال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلموا والله أنه لَلنّبي الذي كانت توعدكم به اليهود[١٨]، فلا يَسبِقُنّكم إليه، فأجابوا رسول الله ﷺ إلى ما دعاهم إليه وصدقوه، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وكانوا هم أول غيث النصر المنهمر بنشر الدعوة في بلدهم وبين أقوامهم، فأسلموا، وهم ستة نفر، أو ثمانية.

وكان فيهم رافع بن مالك بن العجلان الزرقي، وهو أول من أعلن إسلامه، قال ابن إسحاق: هو أول من قدم المدينة بسورة يوسف، ومسجدهم، (مسجد بني زريق) أول مسجد قرئ فيه القرآن، وكان النبي ﷺ يعجبه اعتدال قبلته، وكان رافع بن مالك حريصًا على أخذ القرآن من النبي وتلقيه عنه منذ لقيه بالعقبة، فقد أعطاه رسول الله ﷺ كما حكاه الزرقاني في شرح المواهب - ما أنزل عليه في العشر سنين التي خلت، فقدم به رافع المدينة وجمع قومه، فقرأ عليهم في موضع مسجدهم قبل أن يقام المسجد.

---

(١٨) أوعده: هدّده. [المجلة]

وأخذ رسول الله ﷺ على من بايعوه من الخزرج أن يمنعوا ظهره حتى يبلِّغ رسالة ربه - أي إذا قدم عليهم - فقالوا: يا رسول الله قد علمت الذي بين الأوس والخزرج من الاختلاف وسفك الدماء ونحن حرّاص على ما أرشدك الله به، مجتهدون لك بالنصيحة، وإنا نشير عليك برأينا، فامكث على اسم الله حتى نرجع إلى قومنا، فنذكر لهم شأنك، وندعوهم إلى الله ورسوله، فلعل الله عز وجل أن يصلح ذات بينهم، ويجمع لهم أمرهم، فإنا اليوم متباغضون، متباعدون، وإنك إن تقدم علينا ولم نصطلح لا يكون منا جماعة عليك، ولكنا نواعدك الموسم من العام المقبل.

فرضي رسول الله ﷺ بذلك منهم، فرجعوا إلى قومهم، فدعوهم سرًا وأخبروهم برسول الله ﷺ، والذي بعثه الله به، وتلوا عليهم القرآن، حتى قلّ دارٌ من دور الأنصار إلا قد أسلم فيها أناس.

وفي مواهب القسطلاني وشرحها للزرقاني أن النبي ﷺ لما قال لهم: «تمنعوا ظهري حتى أبلِّغ رسالة ربي» قالوا له: يارسول الله إنما كانت «بعاث» عام أول، يوم من أيامنا، اقتتلنا فيه، فإن تقدم علينا ونحن كذلك لا يكون لنا عليك اجتماع، فدعنا حتى نرجع إلى عشائرنا لعل الله أن يصلح ذات بيننا، وندعوهم إلى ما دعوتنا إليه، فعسى الله أن يجمعهم إليك، فإن اجتمعت كلمتهم عليك، واتبعوك فلا أحد أعز منك، وموعدك الموسم العام المقبل.

وانصرفوا إلى المدينة، فدعوا قومهم، وأخبروهم خبر رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الله ورسوله، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا فيها ذكر رسول الله ﷺ، وظهر الإسلام وانتشر، وتحدث به الناس حديثًا معلنًا جهيرًا بعد الهمس والاستسرار.

والصحيح أن يوم (بُعاث) كان قبل الهجرة النبوية بخمسة أعوام، قتل فيه كبراؤهم الذين يأنفون أن يتبعوا غيرهم، والذين عسوا في الكفر على عادات الجاهلية وموروثاتها مستكبرين في الأرض، فأفناهم الله في وقائعهم التي كان آخرها وأفظعها يوم بعاث، ولم يبق إلا من لا يدفع عن نفسه ولا يسمع قولُه، ولا يستضاء في المدلهمات برأيه.

وخلا جو يثرب من الإغراء والتحريض على الحرب، وتأريث نيران الآثار، وأسرع شبابهم إلى الإسلام يدينون به ابتهاجًا بما مَنَّ الله به عليهم من نعمة الهداية والتوفيق، وحلت الإلفة والإخاء محل التباغض والشحناء، فكانوا حَمَلة لواء الدعوة إلى الله الذين أعز الله بهم نبيه ودينه، وسارت بهم فلك الهداية في يمّ العزة لله ورسوله والمؤمنين.

الباكورة الرابعة بيعة العقبة الثانية:

كان لقاء رسول الله ﷺ هؤلاء الرهط الخزرجيين، وإسلامهم، وبيعتهم النبي ﷺ على أن يمنعوا ظهره إذا وصل إليهم، وصدقهم النصح له ﷺ في إخبارهم له بما هو واقع في قومهم بين قبيلتيهم من الأوس والخزرج من العداوة والشنآن والحروب المدمرة التي استباحت بيضاءهم، وأفنت خضراءهم، والتي كان أقربها ذكرًا منهم أشهر أيامهم، وأشدها ضراوة فيهم، وقسوة عليهم، بما أثخنوا فيه - من أعظم آيات الله وأبدع صنعه، بما قدمه الله تعالى لرسوله ﷺ من فضله وحكمة تدبيره، وخفف به عنه شدة ما كان يلقى من الناس وهو يعرض نفسه الكريمة عليهم في مجتمعاتهم يدعوهم إلى الله، ويطلب إليهم أن يئووه، ويحرزوه حماية له مما يراد به حتى يبلغ رسالة ربه التي منعته قريش من تبليغها.

فاستبشر رسول الله ﷺ بذلك اللقاء، وقرت به عينه واستيقن أن الله ناصره، ومنجز له وعده؛ لأنه سبحانه جعل له أنصارًا ساقهم إليه بحكمته في صورة متدرجة نامية، بدأت وليدة تكلؤها رعاية الله وتحوطها عنايته، ورسول الله ﷺ يرقبها من وراء سعيه الدؤوب لنشر دعوته وتبليغ رسالته، حتى نهدت مشتدة السواعد، قوية الوثبة، عظيمة الانتشار، فكانت فتحًا مبينًا، ونصرًا مؤزرًا.

انصرف الرهط الخزرجي إلى يثربهم بعد هذه البيعة الممهدة، وبين قومهم ما بينهم من العداوة، فتحدثوا إلى قومهم حديثًا بعيدًا عن غمرات الحروب وسفك الدماء، وثارات الأبطال الذين أفنتهم الحروب، بل حدثوهم عن محمد ﷺ، ومكارم أخلاقه، وسمو دعوته، وجلال رسالته، وما أخذه عليهم وما حدثوه به من صدق الحديث عن حال قومهم، وما بينهم من التباغض، والتباعد والفتن والحروب، والأخذ في إعداد أسباب التفاني تمسكًا بموروثات الجاهلية، وبما أمرهم به رسول الله ﷺ من نشر الهداية بين قومهم، والدعوة إلى إصلاح ذات بينهم، وإسماعهم آيات الله بتلاوتها عليهم ليستشعروا فضل الله عليهم، عسى أن يثوبوا إلي رشدهم وينيبوا إلى ربهم، ويقلعوا عن مطاوعة الشيطان، ويفقهوا ما جاءهم به هذا الرسول الأمين من الخير والهدى، فيؤمنوا به ويجعلوا جهدهم في سبيل دعوته ونشر رسالته، عاملين بشرائعها، مستمسكين بآدابها وأخلاقها.

فصدقوا ما عاهدوا الله ورسوله عليه، ووفوا بما وعدوا، وتتابع الغيث هطالًا من سماء الهداية، فلم يكد يمر العام بموسمه، ويقبل العام الجديد بموسمه حتى وافى مكة اثنا عشر رجلًا، فيهم خمسة من الرهط الأول أهل البيعة الأولى

الخزرجيين وسبعةٌ قدموا معهم، فكان لقاؤهم رسول الله ﷺ أول لقاء لهم، فيما عدا أبو الهيثم بن التيهان، فإنه مذكور في رجال اللقاء الأول على رأي من ذكر أن الرهط كانوا ثمانية.

ومهما يكن من شيء فإن هؤلاء الاثني عشر رجلًا الخزرجيين بايعهم رسول الله ﷺ بيعة أوسع إحكامًا، وأوكد توثقًا من بيعة من سبقهم الذين لم يذكر في بيعتهم سوى أن يمنعوا ظهره إذا قدم عليهم، أما هؤلاء الاثنا عشر فقد بايعهم ﷺ بيعة على وفق بيعة النساء التي نزلت آيتها بعد ذلك، إما في فتح مكة - كما يقول أبو حيان في (بحره) - أو في عام الحديبية - كما يقول ابن كثير - أخرج الشيخان عن عبادة بن الصامت - وكان أحد الاثني عشر: بايعنا رسول الله ليلة العقبة الأولى أن لا نشرك بالله شيئا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، قال: «فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئًا فأُخِذْتُم بحده فهو كفارة له، وإن سُترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله، إن شاء عذب، وإن شاء غفر».

قال ابن اسحاق: فلما انصرف القوم عنه بعث معهم ﷺ مصعب بن عمير، وأمره أن يقرِئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، وفي عيون الأثر قال: فلما انصرفوا بعث

رسول الله ﷺ معهم ابن أم مكتوم، ومصعب بن عمير، يُعلِّم مَن أسلم منهم القرآن، ويدعو مَن لم يسلم إلى الإسلام.

قال البيهقي في الدلائل بعد أن ذكر كلام ابن إسحاق المتقدم في بعث مصعب بن عمير معهم، قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر أن رسول الله ﷺ إنما بعث مصعب بن عمير بعدهم، وإنما كتبوا إليه: أن الإسلام قد فشا فينا، فابعث إلينا رجلًا من أصحابك يقرئنا القرآن، ويفقهنا في الإسلام، ويقيمنا لسنته وشرائعه ويؤمنا في صلاتنا.

قال البيهقي في الدلائل: ثم بعثوا إلى رسول الله ﷺ معاذ بن عفراء، ورافع بن مالك: أن ابعث إلينا رجلًا من قِبَلِك يفقِّهُنا ويدعو الناس بكتاب الله، فإنه قَمِنٌ أن يتبع[١٩].

فبعث ﷺ مصعب بن عمير، وكان مصعب ينزل على أبي أمامة أسعد بن زرارة، وكان مصعب يسمى بالمدينة المقرئ، وكان أبو أمامة يذهب بمصعب إلى دور الأنصار، يدعوهم إلى الإسلام، وتفقيه مَن أسلم منهم.

وقد لازم مصعب أسعد بن زرارة يقيم معه في منزله، ويتساند معه في الدعوة إلى الله، يدخل به أسعد بن زرارة دور

---

(١٩) قَمِنٌ وقمين بكذا أي جدير به. [المجلة]

الأنصار الذين آمنوا بالله ورسوله، ويذهب به إلى مجتمعاتهم، يصلي بهم إمامًا، ويعلمهم شرائع الإسلام، ويتلو عليهم القرآن ويدعو من لم يكن قد أسلم إلى الإسلام.

وكان مصعب رضي الله عنه عظيم البركة والخير على الدعوة إلى الله وتبليغ رسالة الإسلام، حصيف الرأي، صبورًا على ما يلقى من الأذى، عقولًا متأنيًا، متأتيًا للأمور من مداخلها، فهو من أعظم الدعاة إلى الله الذين رباهم رسول الله ﷺ، كان بعثُه إلى المدينة المنورة مقرئًا معلمًا، هاديًا، داعيًا إلى الخير -فتحًا مبينًا لانتشار الدعوة وتبليغ الرسالة.

فقد دخل على يديه من أهل المدينة المنورة أوسها وخزرجها عدد لا يحصى من الرجال والنساء، ودوى صوت الاسلام في أرجائها جهيرًا قويًا ببركة إخلاصه، وقوة إيمانه وحبه الله ورسوله، وهو أول مَن صلى الجمعة في الإسلام بمن آمن من أهل المدينة، بإذن رسول الله ﷺ، كتب إليه النبي ﷺ يأمره بذلك.

وقد روى الإمام الدارقطني عن ابن عباس: أذن النبي ﷺ بإقامة الجمعة لأهل المدينة قبل هجرته ﷺ إليها، قال الزرقاني في شرح مواهب القسطلاني: ولفظ الحديث عن ابن عباس: أذن رسول الله ﷺ بالجمعة قبل أن يهاجر ولم يستطع

أن يجمِّع بمكة[٢٠]، ولا يبدي ذلك، فكتب إلى مصعب بن عمير: «أما بعد: فانظر اليوم الذي تجهر فيه اليهود بالزبور لسبتهم»، فاجمعوا نساءكم وأبناءكم، فإذا زال النهار عن شطره فتقربوا إلى الله بركعتين، قال ابن كثير: هذا حديث في إسناده غرابة.

ونسبة التجميع بأهل المدينة إلى أسعد بن زرارة يقول عنه البيهقي في التوفيق بين قول ابن شهاب الزهري، وقول عبد الرحمن بن كعب بن مالك: وكأن مصعبًا جمَّع بهم بمعونة أسعد بن زرارة فأضافه كعب إليه.

روى البيهقي بسنده عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال: كنت قائد أبي حين كف بصره، فإذا خرجت به إلى الجمعة فسمع الأذان بها، استغفر لأبي أمامة أسعد بن زرارة، فمكثت حينًا أسمع ذلك منه، فقلت في نفسي: والله هذا بي لعجز، ألا أسأله؟ فقلت: يا أبتِ مالَك إذا سمعت الأذان للجمعة صليتَ على أبي أمامة؟ فقال: أي بني، كان أسعد أول من جمّع بنا بالمدينة، في هزم النبيت عند حرة بني بياضة في بقيع يقال له بقيع الخضمات، قلت: وكم أنتم يومئذ؟ قال: أربعون رجلًا، قال ابن كثير: وقد روى هذا الحديث أبو داود، وابن ماجه.

(٢٠) جمَّع: صلى الجمعة. [المجلة]

ومـن أبرع وأجل وأشـجع مواقـف مصعب رضـي الله عنه التي فتح بها الطريق أمام الدعوة إلى الله فتحًا تسـامت به، حتى دخلت القلـوب وحـررت العقول، وأشـرقت بنورهـا الأرواح ما حدَّث به الثقاتُ من رواة السيرة والمتتبعون لسير الرسالة في مراحلها.

قالوا: خرج أسـعد بن زرارة بمصعب بن عمير يومًا إلى دار بنـي عبد الأشـهل - وكانوا أهـل إيمان ويقيـن وإخلاص، لم يعرف فيهم منافق أو منافقة - فدخل به حائطًا من حوائط بني ظفر، فجلسا فيه، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم.

قال صاحب (العيون): وسـعد بن معاذ، وأسيد بن حضير يومئذ سـيدا قومهما، وكلاهما مشـرك على ديـن قومه، فلما سـمعا بهما قال سعد بن معاذ لأسـيد بن حضير: لا أبا لك!! انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما، وانههما من أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أن أسـعد بن زرارة منـي حيث قـد علمت كفيتك ذلك، هـو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدمًا.

فأخذ أسـيد بن حضيـر حربته ثم أقبل إليهما، فلما رأى أسـعد بن زرارة أسـيد بن حضير مقبلًا إليهمـا قال لصاحبه مصعب: هذا سيد قومه، قد جاءك فاصدق الله فيه، فقال مصعب في هدوء رسوخ اليقين، وثقة الإخلاص: إن يجلس هذا أكلمه، فوقف عليهما أسيد

بـن حضير متشـتمًا، فقال: ما جاء بكما إلينا تسـفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة.

فقال له مصعب في ثقة الإلهام: أو تجلس فتسمع إن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره، قال أسـيد متعقلًا: أنصفت. ثم ركز حربته وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن، فقالا: - أي مصعب وأسـعد بن زرارة: والله لقـد عرفنـا في وجهه الإسـلام قبل أن يتكلم، ثم تكلم أسـيد فقال: ما أحسـن هذا وأجمله!! كيـف يصنع من أراد الدخول في هـذا الدين؟ قالا له: تغتسـل فَتَطَّهر، وتُطهِّـر ثوبيك، ثم تشـهد شهادة الحق ثم تصلي، فقام أسيد بن حضير، فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشـهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قـال لهما: إن ورائي رجـلًا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرسـله إليكما الآن، وهو سعد بن معاذ، ثم أخذ أسيد حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلا قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بوجـه غير الوجـه الذي ذهب به من عندكـم، فلما وقف على النادي، قال له سـعد: ما فعلت؟ قـال: كلمتُ الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأسًـا، وقـد نهيتهما، فقالا: نفعـل ما أحببت، وقد حُدثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسـعد بن زرارة ليقتلوه،

وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليخفروك، فقام سعد بن معاذ مغضبًا مبادرًا تخوفًا للذي ذكر له من أمر بني حارثة، فأخذ الحربة من يده، وقال: والله ما أراك أغنيت عنا شيئًا.

ثم خرج إليهما، فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيدًا إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتمًا، ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة أما والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمتَ مني هذا، أتغشانا في دارنا بما نكره؟

وكان أسعد بن زرارة قد قال لمصعب بن عمير: أي مصعب، جاءك والله سيد مَن وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان، فقال مصعب لسعد بن معاذ: أو تقعد فتسمع؟ فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته عُزل عنك ما تكره، قال: سعد بن معاذ: أنصفت، ثم ركز الحربة وجلس، فعرض عليه مصعب بن عمير الإسلام، وقرأ عليه القرآن. قالا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تركع ركعتين.

ثم أخذ حربته فأقبل عامدًا إلى نادي قومه، ومعهم أسيد بن حضير فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيًا وأيمننا نقيبة،

قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلمًا أو مسلمة.

قال أبو عمر بن عبد البر: حاشى الأصيرم، وهو عمرو بن ثابت بن وقش، فإنه تأخر إسلامه إلى يوم أحد فأسلم واستشهد، ولم يسجد لله سجدة، وأخبر رسول الله ﷺ أنه من أهل الجنة.

قال البيهقي في الدلائل من رواية موسى بن عقبة: فبينما مصعب بن عمير يحدثهم ويقرأ عليهم القرآن أخبر بهم سعد بن معاذ، فأتاهم في لأمته معه الرمح حتى وقف عليهم، فقال لأبي أمامة: علام تأتينا في دورنا بهذا الوحيد الغريب الطريد، يسفه ضعفاءنا بالباطل ويدعوهم إليه، لا أراك بعدها تسيء من جوارنا، فقاموا ورجعوا.

ثم إنهم عادوا مرة أخرى لبئر بني مرق أو قريبًا منها، فذكروا لسعد بن معاذ الثانية فجاءهم، فتوعدهم وعيدًا دون الأول، فلما رأى منه أسعد بن زرارة لينًا قال له: يا ابن خالة استمع من قوله، فإن سمعت منكرًا فاردده بأهدى منه، وإن سمعت حقًا فأجب إليه، فقال سعد بن معاذ: ماذا تقول؟ فقرأ عليه مصعب بن عمير: ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا

جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

(الزخرف: ١-٣)

فقال سعد بن معاذ: ما أسمع إلا ما أعرف، فرجع وقد هداه الله، ولم يظهر لأسعد بن زرارة ومصعب إسلامه حتى رجع إلى قومه، فدعا بني عبد الأشهل إلى الإسلام، وأظهر لهم إسلامه، وقال: من شك منكم فيه فليأت بأهدى منه، فوالله لقد جاء بأمر لتُحزَنّ فيه الرقاب، فأسلمت بنو عبد الأشهل عند إسلام سعد بن معاذ ودعائه، فكانت أول دار من دور الأنصار أسلمت بأسرها.

ثم إن بني النجار أخرجوا مصعب بن عِمير، واشتدوا على أسعد بن زرارة فانتقل مصعب بن عمير إلى سعد بن معاذ، فلم يزل عنده يدعو آمنا، ويهدي الله على يديه حتى قَلَّ دار من دور الأنصار إلا قد أسلم أشرافها، وأسلم عمرو بن الجموح وكسرت أصنامهم وكان المسلمون أعز أهل المدينة.

الفهرس

❀ ❀ ❀



البقيع

مطابع الأهرام التجارية-قليوب-مصر


الأزهر
هدية مجلة الأزهر
لشهر صفر
١٤٣٨ هجرية